مـــصـــاعـــد الـــقـــلـــب

– تأمّلات في المزامير –

المطران بولس يازجي

مَـــصَـــاعِـــدُ الـــقَـــلْـــبِ

تـــأمّـــلات فـــي المـــزامـــيـــر

مـــنـــشـــورات دير البـــشـــارة
حـــلـــب – ٢٠٠٦

مـــصـــاعـــد الـــقـــلـــب

لصاحب السيادة المطران بولس يازجي

© جميع الحقوق محفوظة – الطبعة الأولى ٢٠٠٦

طباعة

دار الضاد للطباعة والنشر

منشورات

دير البشارة التابع لمطرانية الروم الأرثوذكس – حلب

ص.ب. ٦٩٧٦ حلب– سوريا

تلفاكس: ٢٢٨٦٩٤٤ (٢١ ٩٦٣ +)

أيقونة الغلاف: النبي داوود مرنّماً المزامير وهو يعزف على القيثارة

الإهـــداء

إلى

قــلوب مــصلــيّة – **Orante**

مـــلاك أبـــرشـــيّة الـــلاذقـــيّة

المـــطران يـــوحنّا مـــنصور الجـــزيل الاحـــترام

والمـــترهّـــبين والخـــادمين

مـــع طلـــب صـــلواتـــهم

المـــقـــدّمـــة

جميع ما هو موجود في الكتاب المقدّس يرمي إلى المسيح، ومن هذا المنطلق يقرأ المؤمنون أسفار الكتاب المقدّس في نور الربّ يسوع. ولكن ما عسى سفر المزامير يعني بالنسبة إلينا نحن الذين نحيا في القرن العشرين؟ لقد وظّفت الكنيسةُ المزاميرَ كتسابيح فعّالة جدّاً في منظومتها الليتورجيّة وليس هناك من خدمة ليتورجيّة تخلو من مقاطع مختارة من المزامير، وهكذا بات استخدام المزامير في صلاة الكنيسة الأرثوذكسيّة أمراً أساسيّاً يساعد المؤمن على رفع قلبه وذهنه إلى الله. ففي المزامير يصرخ المؤمن صرخات الفرح على انتصارات الله فيه، كما ويعبّر عن حزنه على خطايا يرتكبها الإنسان لأسباب شتّى. من هنا جاءت هذه الخطوة المباركة التي قام بها سيادة المطران بولس (يازجي) مشكوراً في سبيل دعم فَهْم المصلّي العربيّ للمزامير وتوضيح خفايا بعض المزامير التي يصلّيها دوماً.

المطران بولس (يازجي) ذو باع طويل في اللّغة اليونانيّة ويستطيع أن يغوص في معاني هذه اللّغة وتعابيرها، وهذا يدعم خبرته في فهم الكتاب

المقدّس بطريقة أكثر عمقاً، ويريد أن ينقل تأمّلاته في المزامير إلى أبنائه الروحيّين وإلى جميع الذين يصلّون في المزامير وخاصّة إلى الذين يقرؤونها يوميّاً بحسب تقسيمات الأسبوع ويريد أن يُشرِك الجميع في هذه التأمّلات القيّمة والمغذّية للنفس. وهو بهذه التأمّلات يدخل إلى خفايا الكلمة الإلهيّة ويُخرج منها الدرر المبثوثة فيها. إنّه يعبِّر عن ذلك ويُدخِلك معه للاشتراك بهذه الدرر فتدخل الكلمات إلى أعماق قلبك وتنفجر في القلب إيماناً ورجاءً وتوبةً وتواضعاً. فيتأثّر كيان الإنسان وتهتزّ عظامه فتنسكب الدموع من العينَين ندماً ورجوعاً إلى الله وارتماء على قدمَيه بانسحاق وتواضع. المطران بولس يشرح تأمّلاته في بعض المزامير بلغة سلسة مفهومة يقرؤها بسطاء العلم فيفهمونها ويقرؤها العارفون فيرتفعون وينتفعون.

+ المـــطـــران

يـــوحـــنا منـــصـــور

متروبوليت الـــلاذقـــيّة وتوابعها

للروم الأرثوذكس

ســـرّ الحـــرب الـــروحـــيّة

تأمّل في المزمور الرابع[1]

"إذ دعوتُ استجابَ لي إلهُ برّي، في الحزن فرّجتَ لي،
ترأفْ عليَّ واستمعْ صلاتي"

"مزمور لداوود في النهاية من التسابيح"

"في النهاية": إنّه يتكلّم عن نهاية الجهاد الروحيّ؛ يتكلّم عن القيامة التي هي مظهر العالم الآتي ونهاية الحاضر. وكما يقول القدّيس غريغوريوس النيصصي إنّ هذا المزمور هو صلاة مناسبة لكلّ نفس تدخل جهاداً، لأنّه يؤكّد النصر المنتظر والمرجوّ وهكذا يتشدّد أصحاب الجهاد.

ويُعتقد أنّ داوود قد نظمه تسبحةَ غلبةٍ وشكرٍ على عظائم الله التي أتمّها له تجاه أبيشالوم (ثيوذورتيوس). إنّه مزمور جميل على قلب كلّ مسيحيّ بدأ

[1] يُتلى هذا المزمور في صلاة النوم الكبرى.

جهاداً روحيّاً ويرجو التحرّر من أهوائه وصعوباته. إنّه مزمور يعطي دفعة ونشاطاً وانطلاقة.

"بما أنّ النهاية المرجوّة لكلّ جهاد هي الغلبة، لذا يتطلّع إليها المجاهدون ليدخلوا الميدان بشجاعة، فإنّ كلمة "في النهاية" تحثّ الهِمَم فوراً في نفوس المجاهدين لعيش الفضائل، فهم إذ ينظرون إلى النهاية، أي الغلبة، والأكاليل، تسهلُ أتعابُ جهادهم...".

"سرّ الصلاة والطلب – الحرب الروحيّة – أنا والله"

(١) إذ دعوتُ استجابَ لي إلهُ برّي

لكي ندخل إلى عمق هذه الصرخة الفرحة، لربّما الأسهل أن نبدأ بشرح آخرها، وذلك من كلمات الذهبيّ الفمّ، الذي درَّ على العصور بدرره الذهبيّة الثمينة، فهو يشرح كلمة "إله برّي" ويؤكّد أنّ داوود هنا لا يفتخر ببرّه الذاتي، كالفريسيّ مثلاً! هنا على العكس، داوود بقلب منسحق يعيد الفضل ببرّه للربّ،"فكلّ ما نعمله إنّما نحن عبيد بطّالون"، و"بدونه لا نقدر أن نعمل شيئاً"، وكلّ إنجاز بشريّ هو هديّة وهبة إلهيّة.

هذه العبارة أشبه مثلاً بفنّان موسيقيّ رائع عندما يمتدحوه يقول فلان هو أستاذي، معيداً فضل براعته لأستاذه. هكذا داوود يعرف في العمق أنّ علّةَ سعادته وحياته البارّة هي نتيجة تحنّن الله وثمرة علاقته بالله والحياة بقربه. فالشعور بالحياة البارّة والسعيدة ليس خطأ، إنّما إعادة ذلك إلى الذات هو

الفريسيّة. الفرح بحياتنا المسيحيّة هو أمر واقعيّ. والمسيحيّ يشكر كثيراً ومن العمق، لأنّه تعرّف على الله، ويعرفه الله، فهو إله حياته القويمة، أي إله برّه.

من جهة أخرى يتوقّف فمّ الذهب عند هذه الكلمات ويؤكّد أنّه لكي يُستجاب الإنسانُ عندما يدعو الله في الصلاة عليه ليس فقط أن "يتقدّم هو"، وإنّما أن يأتي "ويقدّم"؛ ماذا يقدّم؟ حياته البارّة! الصلاة ليست تأمّلاً فكريّاً وهي أبعد عن أن تكون مجرّد مشاعر شخصيّة، إنّها حوار مع شخص وليست توجيهَ أشعار وتسابيح إلى فكرة!

لهذا وقفة الصلاة كما يسمّيها السلميّ هي "محكمة" ومحاكمة، إنّها مواجهة، وفي هذه المواجهة يجب أن أتّجه أنا إليه وأن يلتفت "هو" إليَّ. عندما يغيب اللهُ عن صلاة المسيحيّ يكرّر مع داوود صلاته: "إلى متى يا ربّ تنساني أَإلى الانقضاء، إلى متى تصرف وجهك عني...".

الصلاة ليست رسالةً إلى الله وإنّما حديث معه. هذا لا يتطلّب حضوري فقط وإنّما حضوره ورضاه أيضاً. لو تكلّمنا مع شخص يردُّ لحظَه عنّا، لا يستمرّ الحوار، ويبقى الحديث مجرّد بتْبَتَة كلمات أو ثرثرة.

يواجه المسيحيّ اللهَ في الصلاة لهذا علينا "ألاّ نطيل الكلام عبثاً في الصلاة". فالمسيحيّ لا يردّد فيها مجرّد عبارات وإنّما يقدّم حياته أمام الله. إذن نتكلّم ليس عن خدم وصلوات وإنّما عن حياة الصلاة. الصلوات والخدمات الليتورجيّة هي عبارات تلك الحياة. المطلوب أن تصير كلّ الحياة صلاة، وأن نردّد مع بولس المصلّي: "لستُ أنا أحيا بل المسيحُ يحيا فيَّ". الصلاة الدائمة ليست في المعبد فقط وليست أمام الأيقونة فحسب، هذه الأخيرة هي صلوات

الواقفين بعد على الدرجات الأولى. مَن ولج حقاً إلى الصلاة هو مَن ولَج المسيحُ إلى حياته فصار مركزَها. لا يدخل الربُّ إلى حياة لا مكانة له فيها أو إلى معابد فيها آلهةٌ أخرى.

نكرّر دائماً في صلواتنا وطلباتنا - وغالباً ما نسهو عن عمق الكلمات فتغدو تكراراً مملاًّ – العبارةَ: "وكلّ حياتنا للمسيح الإله". أن نعطي حياتنا لله لا يعني أن ننقطع عن حياتنا وإنّما أن نحيا ونعمل من أجل الله، ونسير بدنيانا وبإخوتنا نحو الله. الجميع يعملون ويشتغلون ويلدون ويولدون، لكن السؤال هو: لماذا ولمن؟ الحياة للربّ. حياة البرّ ليست مهنةَ الرهبان فحسب، إنّما دعوة كلّ مسيحيّ، كلٌّ من مكانه. الحياة للمسيح لا تعني الحياة التأمليّة والابتعاد عن العالم. الحياة للمسيح تعني أن يكون هو غايةَ وجودنا، به نحيا وإليه نتحرّك. "لا لنا يا ربّ لا لنا بل لك". هكذا نردّ على كلّ الطلبات: "لك يا ربّ". هذه هي الحياة البارّة التي غايتها ونهايتها "هو". هكذا تغدو الحياة غبطة، عندما تأخذ معنى، ومعنى حقيقيّاً وصحيحاً. عكس ذلك تبقى الحياةُ وجوداً قلقاً وطلباً لا يشبع إنْ لم ينقلب إلى عداوات وتسابقاً على ملذّات الدنيا ومراكزها، سعياً لإشباع ذاتنا التي لن تشبع حقّاً إن لم تلتقِ بالمسيح.

لا يطلب الله منّا إطالة الكلام معه، إنّما حياتنا؛ لا يطلب منّا يداً أو حاسّةً أو عضواً أو جزءاً من حياتنا وإنّما يقول: "يا بنيَّ أعطِني قلبك". وعندما نعطي القلب لله وحده عندها يجول هو فيه ونسمع وقع خطاه ويصير القلب ليس عضلات وإنّما دنيا تحمل كلّ الناس وتحبّ كلّ الناس ولا تكره

أحداً. وسط الظلم والضيقات يعرف القلب كيف يصلّي وكيف يتحرّك ويسعى. هذا هو سرّ استجابة الله، سرّ الصلاة.

الربّ سريع الإجابة لمثل هذا القلب. أشعياء النبيّ يقول: "أُدْعُ والله يستمع لك. فعند دعائك يجيب ها أنا حاضر"[٢]. الله حاضرٌ فعلاً وينظر إلينا، عندما نحضر نحن دون مرآة؛ عندما نحضر إليه ونحن لا نخفي داخلنا أعداءه، وهو الفاحص القلوب والكلى... المرآة بالصلاة هي سمّها. إنها الصلاة بالشفاه. على مثل هؤلاء المصلّين ينطبق توبيخ الربّ: "هذا الشعب يكرمني بشفتَيه وقلبه بعيد عنّي". مَن يستطيع أن يواجه الربّ بقلب معوجّ؟

تدبّ المرآة بين الناس. وغالباً، وللأسف، ما تأخذ لون التهذيب والمجاملات واللياقات لكن، أمام الله، الوقفة هي محاكمة صريحة "فالأفعال تُكشف والأفكار تُستفحص". لا يمكننا أن نرضي الله "بالكلام" وإنّما بالحياة. مهما صرخنا لن يستجيب لنا إن لم نتقدّم إليه من حياة بارّة.

- **في الحزن فرّجتَ لي**

هذا هو سرّ الصليب. "لكلّ إنسان صليبه" مقولة محفوظة، لكن قد نخطئ فهمها عندما نعطيها معنى تشاؤميّاً. الصليب هو علامة الغلبة والتضحية، وليس علامة القدر الأسود؛ المسيح بدّل معناه.

هنا يعبّر داوود بصلاته فعلاً عن سرّ الألم والمصائب والشدائد في حياة المسيحيّ. المسيحيّ لا يطلب الهروب من مواجهة الحياة، ولا يصلّي لكي يُحيد الله عنه الشدائدَ، فالله يجرّب مَن يحبّه. رهبان وقدّيسون يعتبرون الفترات

---

[٢] أش ٥٨، ٩.

التي لا يمرّون بها بضيقات فترات "هجر إلهيّ". عندما تشتدّ المصاعب يرفع المسيحيّ صرخة: "إن أمكن فلتجزْ عنّي هذه الكأس، ولكن لا تكنْ مشيئتي بل مشيئتك". عالمنا دنيا مخلوطة بالضيقات والشدائد والأمراض والأحزان... والمسيحيّ لا يمكنه أن يطلب الفرار. في قلب هذه الشدائد يأتي الربّ. بمعنى آخر، نصرخ إلى الربّ الواقف "الحاضر" فتتنقلب هذه الشدائد من قدر أسود إلى صليب رائع نرفع ذواتنا عليه جَدّاً وتعباً وتضحيةً وفديةً ومحبّة للآخرين. هكذا تجلب الشدائدُ بدل الحزن فرجاً وبدل الكآبة غبطةً وبدل التشاؤم وفرحاً.

في الحزن فرّجتَ لي: لم يرفع الربّ عن داوود هنا شدّته، وإنّما جعله قويّ القلب رابط الجأش مؤمناً مواجهاً للدنيا بفرح. الربّ، كما يقول اسحق السريانيّ، لا يجرّب أحداً بأكثر من طاقته ومع كلّ ضيق يسمح به يرسل مخرجاً له. معروفة لدينا قصّة الليلة التي أمضاها القدّيس أنطونيوس الكبير محارَباً ومجرَّباً من الشياطين، حين تنهّد عند الصباح إذ انصرفت تلك عنه ورفع تنهّده إلى الله: أين كنتَ طيلة تلك الليلة؟ فأجابه الله: قربك أراقب وأعدّ انتصاراتك. الله كالأم التي تترك طفلها لوحده في الخطوات الأولى ولكنّها فوقه ومن خلفه لا تتركه يقع.

وقصّة ذاك المسيحيّ، الذي كان يتأفّف دائماً على الربّ: إنّ صليبي كبير، أيضاً معروفة. فإذ أراه الله كلّ صلبان الدنيا، جال بينها إلى أن راق له إحداها، صليب صغير وجميل، ولما اختاره كان صليبَه الشخصيّ بالذات.

داوود هنا يشكر الربّ ليس لأنّه رفع عنه الشدائد ولكن لأنّه عندما سمح بها ساعده ليجدها ليس "ضيقات" وإنّما "فرجاً".

- **ترأّفْ عليَّ واستمعْ صلاتي**

هنا، كما يقول القدّيس كيرلّلس، أبدل داوودُ النبيّ زمنَ الفعل. أي بدل: "ترأّفتَ عليَّ واستمعتَ صلاتي" لمرّة واحدة، يقول هذا ما يحصل على الدوام، يطلب أن يبقى الله قربه في شدائده المحيطة به، وأن يعطي أذنه إلى تضرّعاته فهي فرجه وقوّته.

ترأّف، نعم. الحياة وإن كانت طاهرة لا تشتري من الله الاستجابة. الاستجابة هي فعل محبّة الله، وليس "بدلَ جهادنا". جهادنا وحياتنا البارّة هما الشراع المشدود الذي يسمح لنفخات الروح التي تهب أن تسيّر به سفينة الحياة. هبوب الرّيح على شراع مطوي لا يفيد، والشراع المشدود بدون الرّيح يترك المركب يتخبّط في المحيط. حياتنا البارّة هي "دلالة" فقط على طلبنا الصادق لله وبعدها كلّ ما نحقّقه هو من الله ولله وحده.

ســـرّ الحـــرب الـــروحـــيّة

تأمّل في المزمور الرابع[٣]

"إذ دعوتُ استجابَ لي إلهُ برّي، في الحزن فرّجتَ لي،
ترأفْ عليَّ واستمعْ صلاتي"

"مزمور لداوود في النهاية من التسابيح"

"في النهاية": إنّه يتكلّم عن نهاية الجهاد الروحيّ؛ يتكلّم عن القيامة التي هي مظهر العالم الآتي ونهاية الحاضر. وكما يقول القدّيس غريغوريوس النيصصي إنّ هذا المزمور هو صلاة مناسبة لكلّ نفس تدخل جهاداً، لأنّه يؤكّد النصر المنتظر والمرجوّ وهكذا يتشدّد أصحاب الجهاد.

ويُعتقد أنّ داوود قد نظمه تسبحةَ غلبةٍ وشكرٍ على عظائم الله التي أتمّها له تجاه أبيشالوم (ثيوذورتيوس). إنّه مزمور جميل على قلب كلّ مسيحيّ بدأ جهاداً روحيّاً ويرجو التحرّر من أهوائه وصعوباته. إنّه مزمور يعطي دفعة ونشاطاً وانطلاقة.

---

[٣] يُتلى هذا المزمور في صلاة النوم الكبرى.

"بما أنّ النهاية المرجوّة لكلّ جهاد هي الغلبة، لذا يتطلّع إليها المجاهدون ليدخلوا الميدان بشجاعة، فإنّ كلمة "في النهاية" تحثّ الهِمَم فوراً في نفوس المجاهدين لعيش الفضائل، فهم إذ ينظرون إلى النهاية، أي الغلبة، والأكاليل، تسهلُ أتعابُ جهادهم...".

"سرّ الصلاة والطلب – الحرب الروحيّة – أنا والله"

(١) إذ دعوتُ استجابَ لي إلهُ برّي

لكي ندخل إلى عمق هذه الصرخة الفرحة، لربّما الأسهل أن نبدأ بشرح آخرها، وذلك من كلمات الذهبيّ الفمّ، الذي درَّ على العصور بدرره الذهبيّة الثمينة، فهو يشرح كلمة "إله برّي" ويؤكّد أنّ داوود هنا لا يفتخر ببرّه الذاتي، كالفريسيّ مثلاً! هنا على العكس، داوود بقلب منسحق يعيد الفضل ببرّه للربّ،"فكلّ ما نعمله إنّما نحن عبيد بطّالون"، و"بدونه لا نقدر أن نعمل شيئاً"، وكلّ إنجاز بشريّ هو هديّة وهبة إلهيّة.

هذه العبارة أشبه مثلاً بفنّان موسيقيّ رائع عندما يمتدحوه يقول فلان هو أستاذي، معيداً فضل براعته لأستاذه. هكذا داوود يعرف في العمق أنّ علّةَ سعادته وحياته البارّة هي نتيجة تحنّن الله وثمرة علاقته بالله والحياة بقربه. فالشعور بالحياة البارّة والسعيدة ليس خطأ، إنّما إعادة ذلك إلى الذات هو الفريسيّة. الفرح بحياتنا المسيحيّة هو أمر واقعيّ. والمسيحيّ يشكر كثيراً ومن العمق، لأنّه تعرّف على الله، ويعرفه الله، فهو إله حياته القويمة، أي إله برّه.

من جهة أخرى يتوقّف فمّ الذهب عند هذه الكلمات ويؤكّد أنّه لكي يُستجاب الإنسانُ عندما يدعو الله في الصلاة عليه ليس فقط أن "يتقدّم هو"، وإنّما أن يأتي "ويقدّم"؛ ماذا يقدّم؟ حياته البارّة! الصلاة ليست تأمّلاً فكريّاً وهي أبعد عن أن تكون مجرّد مشاعر شخصيّة، إنّها حوار مع شخص وليست توجيهَ أشعار وتسابيح إلى فكرة!

لهذا وقفة الصلاة كما يسمّيها السلميّ هي "محكمة" ومحاكمة، إنّها مواجهة، وفي هذه المواجهة يجب أن أتّجه أنا إليه وأن يلتفت "هو" إليَّ. عندما يغيب اللهُ عن صلاة المسيحيّ يكرّر مع داوود صلاته: "إلى متى يا ربّ تنساني أَإلى الانقضاء، إلى متى تصرف وجهك عني...".

الصلاة ليست رسالةً إلى الله وإنّما حديث معه. هذا لا يتطلّب حضوري فقط وإنّما حضوره ورضاه أيضاً. لو تكلّمنا مع شخص يردُّ لحظَه عنّا، لا يستمرّ الحوار، ويبقى الحديث مجرّد بتْبَتَة كلمات أو ثرثرة.

يواجه المسيحيّ اللهَ في الصلاة لهذا علينا "ألاّ نطيل الكلام عبثاً في الصلاة". فالمسيحيّ لا يردّد فيها مجرّد عبارات وإنّما يقدّم حياته أمام الله. إذن نتكلّم ليس عن خدم وصلوات وإنّما عن حياة الصلاة. الصلوات والخدمات الليتورجيّة هي عبارات تلك الحياة. المطلوب أن تصير كلّ الحياة صلاة، وأن نردّد مع بولس المصلّي: "لستُ أنا أحيا بل المسيحُ يحيا فيَّ". الصلاة الدائمة ليست في المعبد فقط وليست أمام الأيقونة فحسب، هذه الأخيرة هي صلوات الواقفين بعد على الدرجات الأولى. مَن ولج حقاً إلى الصلاة هو مَن ولَج المسيحُ إلى حياته فصار مركزَها. لا يدخل الربُّ إلى حياة لا مكانة له فيها أو إلى معابد فيها آلهةٌ أخرى.

نكرّر دائماً في صلواتنا وطلباتنا - وغالباً ما نسهو عن عمق الكلمات فتغدو تكراراً مملاًّ – العبارةَ: "وكلّ حياتنا للمسيح الإله". أن نعطي حياتنا لله لا يعني أن ننقطع عن حياتنا وإنّما أن نحيا ونعمل من أجل الله، ونسير بدنيانا وبإخوتنا نحو الله. الجميع يعملون ويشتغلون ويلدون ويولدون، لكن السؤال هو: لماذا ولمن؟ الحياة للربّ. حياة البرّ ليست مهنةَ الرهبان فحسب، إنّما دعوة كلّ مسيحيّ، كلٌّ من مكانه. الحياة للمسيح لا تعني الحياة التأمليّة والابتعاد عن العالم. الحياة للمسيح تعني أن يكون هو غايةَ وجودنا، به نحيا وإليه نتحرّك. "لا لنا يا ربّ لا لنا بل لك". هكذا نردّ على كلّ الطلبات: "لك يا ربّ". هذه هي الحياة البارّة التي غايتها ونهايتها "هو". هكذا تغدو الحياة غبطة، عندما تأخذ معنى، ومعنى حقيقيّاً وصحيحاً. عكس ذلك تبقى الحياةُ وجوداً قلقاً وطلباً لا يشبع إنْ لم ينقلب إلى عداوات وتسابقاً على ملذّات الدنيا ومراكزها، سعياً لإشباع ذاتنا التي لن تشبع حقّاً إن لم تلتقِ بالمسيح.

لا يطلب الله منّا إطالة الكلام معه، إنّما حياتنا؛ لا يطلب منّا يداً أو حاسّةً أو عضواً أو جزءاً من حياتنا وإنّما يقول: "يا بنيَّ أعطِني قلبك". وعندما نعطي القلب لله وحده عندها يجول هو فيه ونسمع وقع خطاه ويصير القلب ليس عضلات وإنّما دنيا تحمل كلّ الناس وتحبّ كلّ الناس ولا تكره أحداً. وسط الظلم والضيقات يعرف القلب كيف يصلّي وكيف يتحرّك ويسعى. هذا هو سرّ استجابة الله، سرّ الصلاة.

الربّ سريع الإجابة لمثل هذا القلب. أشعياء النبيّ يقول: "أُدْعُ والله يستمع لك. فعند دعائك يجيب ها أنا حاضر"[٤]. الله حاضرٌ فعلاً وينظر إلينا، عندما نحضر نحن دون مرآة؛ عندما نحضر إليه ونحن لا نخفي داخلنا أعداءه، وهو الفاحص القلوب والكلى... المرآة بالصلاة هي سمّها. إنها الصلاة بالشفاه. على مثل هؤلاء المصلّين ينطبق توبيخ الربّ: "هذا الشعب يكرمني بشفتَيه وقلبه بعيد عنّي". مَن يستطيع أن يواجه الربّ بقلب معوجّ؟

تدبّ المرآة بين الناس. وغالباً، وللأسف، ما تأخذ لون التهذيب والمجاملات واللياقات لكن، أمام الله، الوقفة هي محاكمة صريحة "فالأفعال تُكشف والأفكار تُستفحص". لا يمكننا أن نرضي الله "بالكلام" وإنّما بالحياة. مهما صرخنا لن يستجيب لنا إن لم نتقدّم إليه من حياة بارّة.

- **في الحزن فرّجتَ لي**

هذا هو سرّ الصليب. "لكلّ إنسان صليبه" مقولة محفوظة، لكن قد نخطئ فهمها عندما نعطيها معنى تشاؤميّاً. الصليب هو علامة الغلبة والتضحية، وليس علامة القدر الأسود؛ المسيح بدّل معناه.

هنا يعبّر داوود بصلاته فعلاً عن سرّ الألم والمصائب والشدائد في حياة المسيحيّ. المسيحيّ لا يطلب الهروب من مواجهة الحياة، ولا يصلّي لكي يُحيد الله عنه الشدائدَ، فالله يجرّب مَن يحبّه. رهبان وقدّيسون يعتبرون الفترات التي لا يمرّون بها بضيقات فترات "هجر إلهيّ". عندما تشتدّ المصاعب يرفع المسيحيّ صرخة: "إن أمكن فلتجزْ عنّي هذه الكأس، ولكن لا تكنْ مشيئتي

---

[٤] أش ٥٨، ٩.

بل مشيئتك". عالمنا دنيا مخلوطة بالضيقات والشدائد والأمراض والأحزان... والمسيحيّ لا يمكنه أن يطلب الفرار. في قلب هذه الشدائد يأتي الربّ. بمعنى آخر، نصرخ إلى الربّ الواقف "الحاضر" فتتنقلب هذه الشدائد من قدر أسود إلى صليب رائع نرفع ذواتنا عليه جَدّاً وتعباً وتضحيةً وفديةً ومحبّة للآخرين. هكذا تجلب الشدائدُ بدل الحزن فرجاً وبدل الكآبة غبطةً وبدل التشاؤم وفرحاً.

في الحزن فرّجتَ لي: لم يرفع الربّ عن داوود هنا شدّته، وإنّما جعله قويّ القلب رابط الجأش مؤمناً مواجهاً للدنيا بفرح. الربّ، كما يقول اسحق السريانيّ، لا يجرّب أحداً بأكثر من طاقته ومع كلّ ضيق يسمح به يرسل مخرجاً له. معروفة لدينا قصّة الليلة التي أمضاها القدّيس أنطونيوس الكبير محارَباً ومجرَّباً من الشياطين، حين تنهّد عند الصباح إذ انصرفت تلك عنه ورفع تنهّده إلى الله: أين كنتَ طيلة تلك الليلة؟ فأجابه الله: قربك أراقب وأعدّ انتصاراتك. الله كالأم التي تترك طفلها لوحده في الخطوات الأولى ولكنّها فوقه ومن خلفه لا تتركه يقع.

وقصّة ذاك المسيحيّ، الذي كان يتأفّف دائماً على الربّ: إنّ صليبي كبير، أيضاً معروفة. فإذ أراه الله كلّ صلبان الدنيا، جال بينها إلى أن راق له إحداها، صليب صغير وجميل، ولما اختاره كان صليبَه الشخصيّ بالذات. داوود هنا يشكر الربّ ليس لأنّه رفع عنه الشدائد ولكن لأنّه عندما سمح بها ساعده ليجدها ليس "ضيقات" وإنّما "فرجاً".

- **ترأّفْ عليَّ واستمعْ صلاتي**

هنا، كما يقول القدّيس كيرلّس، أبدل داوودُ النبيّ زمنَ الفعل. أي بدل: "ترأّفتَ عليَّ واستمعتَ صلاتي" لمرّة واحدة، يقول هذا ما يحصل على الدوام، يطلب أن يبقى الله قربه في شدائده المحيطة به، وأن يعطي أذنه إلى تضرّعاته فهي فرجه وقوّته.

ترأّف، نعم. الحياة وإن كانت طاهرة لا تشتري من الله الاستجابة. الاستجابة هي فعل محبّة الله، وليس "بدلَ جهادنا". جهادنا وحياتنا البارّة هما الشراع المشدود الذي يسمح لنفخات الروح التي تهب أن تسيّر به سفينة الحياة. هبوب الرّيح على شراع مطوي لا يفيد، والشراع المشدود بدون الرّيح يترك المركب يتخبّط في المحيط. حياتنا البارّة هي "دلالة" فقط على طلبنا الصادق لله وبعدها كلّ ما نحقّقه هو من الله ولله وحده.

ديناميكيّة الحياة

تأمّل في المزمور الرابع[٥]

"يا بَني البشر حتّى متى أنتم ثقيلو القلوب؟
لماذا تحبّون الباطل وتبتغون الكذب؟"

بهذه الكلمات الحارّة يستنهض داؤود النبيّ نفوسنا! إنّها كلماتٌ تتعرّض تماماً إلى حقيقة الإنسان، الذي يرى نفسه يوماً يحبّ الباطل فيسقط ويوماً يحبّ الحقّ فينهض. ما هذا السرّ الإنسانيّ، هناك مَيلان، الأوّل نحو الباطل والثاني نحو الحقّ؟ مرّات يثقل قلب الإنسان فيبتغي الكذب، ومرّات تُنهض قلبه قوّة غريبة "فيذبح ذبيحة الصّدق"!

هناك عوالم ثلاثة: الله، الإنسان، والعالم الماديّ. الله روح مجرّد عن المادّة، والعالم الماديّ مجرّد عمّا هو روحيّ، والإنسان كائن حدوديّ يشترك في العالَمين. يستطيع الإنسان وهو مادّة –خليقة أن يناجي الخالق وأن يتّصل بالله، وهذه فرادته الحقيقيّة عن عناصر الكون والعالم الماديّ الأخرى كلّها.

[٥] يُتلى هذا المزمور في صلاة النوم الكبرى.

وحقيقةً، إنّ الإنسان في حوار دائم مع هاتَين الجهتَين: الله والعالم الماديّ؛ وكلٌّ طرف يشدّه إليه. الإنسان كائن تشدّه الرغبات، فتارّةً تشدّه رغباته إلى الله وتارّةً إلى الدنيا. لا يمكن للإنسان أن يبقى على الحدود. إنّ حياته تتميّز بالديناميكيّة. الإنسان كائن الرغبات. والرغبة دائماً عكس الستاتيكيّة. الرغبة تسحب إلى خارج الواقع الحاليّ، إنّها جاذبيّة. لذلك الإنسان متبدّل وليس جامداً، وليست مواقفه ثابتةً دوماً.

يحمل الإنسان إذن في طبيعته قدرة الاتّصال بالله وكذلك بعناصر الدنيا الماديّة. فحين يميل إلى الطرف الأول يتطاير في العشق الإلهيّ، فيصير مثل الله بالنعمة وليس بالطبيعة؛ وعندما يميل إلى الطرف الثاني يفقد روحانيّته ويصير أقرب إلى المادّة لا حياة فيه، كذلك بالحالة وليس بالطبيعة. يمكن للإنسان أن يصير روحانيّاً أو ماديّاً بقدر ما يميل إلى الله أو المادّة، يمكنه بطبيعته أن يسلك في أحد الاتجاهَين.

هذا التحوّل نحو الروح أو نحو المادّة ليس طبيعيّاً ولا عفويّاً ولا أوتوماتيكيّاً ولا بالصدفة! يقدر الإنسان على ما هو روحيّ كما يقدر على ما هو ماديّ، هذا في طبيعة الإنسان نعم، لكن أن يلتفت إلى ما هو روحيّ ويطلبه أو إلى ما هو ماديّ ويشتهيه ويجذبه، هذا في إرادته. إذ تلعب حريّة الإنسان الدورَ الأساسيّ في اختيار أحد الاتجاهَين وتقبّل جاذبيّة أحد الطرفَين، الروحيّ أو الماديّ.

نعم للعالم جاذبيّة متأصّلة في حاجات الحياة وطبيعة الإنسان، وهذه حقيقة أوجدها الله فيه كيما يميل إلى استخدام العالم والعناية به؛ وهذا هو دافع كلّ تطوّر وتحسين ومسؤوليّة ورغبة في احترام الماديّات وتأهيلها لاستخدامات أمثل وبمردود أفضل. لكن المسألة تصبح مشكلةً حين يميل الإنسان بأشواقه إلى الدنيويّات لدرجة يستسلم إليها وتصبح موضع عبادة ورجاء وعشق، وليس مجرّد أداة ثمينة للحياة. عندئذ تتدنّى الأبعاد الإنسانيّة إلى حدود قيمة الأمور الدنيويّة، وذلك على حساب سموّ الدعوة الروحيّة المنتظَر من الإنسان التزامها. كلّ استخدام للدنيا "خدَمِيّ" هو حقّ، ويرفع من قيمة الإنسان الروحيّة. لكن أيّ استخدام "عباديّ- عشقيّ" يهبط بالإنسان، ويقتل فيه رِفعتَه الروحيّة فيتدنّى.

والله جذّاب جدّاً للإنسان. فبلُغَةِ النسّاك يتطاير الأبرار بالعشق الإلهيّ. وسها داؤود عن أكل خبزه حين تأمّل بالله. والحالات عديدة، التي عند الضرورة ضحّى فيها بشرٌ بكلّ ما هو ماديّ من أجل ما هو روحيّ. يشكّل الشهيد الصورة المطلقة لغلبة خيار الروح على خيار المادّة عند الإنسان، ولهذا للشهيد كرامة خاصّة. لا ننسى أنّ حالات الشهادة هذه تتلوّن وتتعدّد، وكما قال بولس الرسول "من أجلك نُماتُ النّهار كلّه"، إنّه موت شهادة الحياة. الموت الذي يطلبه الكتاب منّا ثمناً لكي نحيا: "مَن أمات نفسه من أجلي يجدها". هذه الحركة مِن تعشُّق الماديّات إلى عشق الإلهيّات هي ما يسمّيه بولس خَلْعُ الإنسان القديم (موته) ولِبْسُ الإنسان الجديد (قيامته).

هناك عشقٌ بشريّ داخليّ يلفت نظرَ الإنسان إلى كلّ ما هو صالح وإلهيّ وسامٍ، وهذه هي ساحة اللّقاء وحيز التواصل بين الله والإنسان؛ وهذه اللقاءات تسحب الإنسان من وضعيّته الراهنة إلى "ما هو أكثر" في العلاقة مع الله. هذه الجاذبيّة الروحيّة تجعل حياة الإنسان في حركة دائمة روحيّاً أيضاً. لذلك يظهر الإنسان دائماً مندفعاً بسبب هذه الدوافع إلى الله. جاذبيّة الله بالنسبة للإنسان هي جماله وصلاحه. تجيب الصورةُ الإلهيّة على عشق الإنسان الداخليّ الحقيقيّ. وجاذبيّة العالم بالنسبة للإنسان هي الحاجة إليه. ويحقّق العالم للإنسان وسيلة الحياة.

إنّ استمراريّة الحياة تضطرّ الإنسان حكماً أن يلتفت إلى العالم، لكن أحياناً بعد أن يستخدمه يشتهيه. كما أنّ اللهَ يتحرّك بصلاحه نحو الإنسان بالكشف الإلهيّ والعناية الدائمة، على الأبرار والأشرار؛ وهذا ما يولّد عند الإنسان، عندما يعي ذلك، الشعورَ بالانكسار والامتنان لله الذي يتذكّره حتّى عندما ينساه هو. يستنهض الروحُ القدس الرغبةَ فينا إلى الإلهيّات ويحرّك الصورةَ الراقدة فينا والرغبة المؤجّلة أو المجمّدة نحو طلب السماويّات. يثير الروحُ ما يلفت نظرنا إلى ذلك العالم الذي ننساه أو نتناساه؛ لعلّنا نعود "نتوب" إلى الله. وإذا ما حصل هذا وتحرّكت الرغبةُ فينا نحو الله يحرّكها الروح ويقودها بالنعمة. لكن كلّ ذلك دون أن يغصب حريّة الإنسان. الروح يستدعي، وإذا ما استجبنا يساعد. لكن الروح لا يغصب. لأنّ شرط الحبّ هو أوّلاً الحريّة! والحبّ بالغصب هو خنوع. لا حبّ إلاّ بحريّة الاختيار.

العطش الإنسانيّ، إلى الله أو إلى المادّة، هو في طبيعة الإنسان، لكن الالتفات إلى هذا الطرف أو ذاك هو خيار بشريّ.

هكذا يأتي التزامنا بالصوم وممارستِه رياضةً تنمّي فينا الالتفاتَ إلى الله والتجرّد عن شهوة العالم؛ الصوم يجعلنا نختار لأشواقنا المحبّة الإلهيّة. يقبل الصومُ أن نستخدم العالَم، لكنّه يحفظ القلب لله. العالم غير شهوته. ونحن صائمون نبقى في العالم، لكن شهوتنا تكون مشدودة نحو الله. بالصوم، نحاول – ونحن نحيا في العالم – أن نتّحد بالله.

يروّض الصومُ ما فينا وما لنا من العالم. يشعل الصومُ فينا العشقَ الإلهيّ، الذي كتب عنه القدّيس اغناطيوس المتوشّح بالله قائلاً: "أكتبُ لكم وأنا بعد حيّ، أنّني أشتهي الموت، إنّ هيامي قد صُلب وليس فيَّ بعدُ عشقُ الماديّات، إنّما ماء حيّ رقراق يتدفّق فيَّ ويقول هلمَّ إلى الآب"[٦].

هذا الماء الروحيّ الدفّاق الذي يُحييه الروح يشدّنا إلى الآب وإلى القريب أيضاً، ويخلق فينا ديناميكيّة الحياة الصالحة، آمين.

[٦] "الرسالة إلى أهل رومية"، ٣، ٧.

دمــوع التــوبــة

تأمّل في المزمور السادس[٧]

المزمور السادس هو صلاة فرديّة لإنسان في ضيق شديد، وسبب هذا الضيق هي خطيئتُه! فما أشدّ ضيقَه من الناس الذين حوله، يعيّرونه على الفارق بين إيمانه وحياته. وما أصعب الضيق الناتج عن إحزانه لإلهه الذي يحبّه الحبّ الأوّل!

لقد غلب هذا الإنسانَ ضعفُه! فهل هناك مخرج؟ ولقد أساء إلى الله الذي كان متّكله! كلّ شيء يدعو للضيق النفسيّ وحتّى الجسديّ ولليأس أيضاً، لولا رحمة الله المخلِّصة!

(العنوان) لإمام المغنين، على ذوات الأوتار، على القرار، مزمور لداؤود

تتصدّر المزاميرَ كلَّها عناوينٌ تشير إلى فحوى المزمور أو طريق أدائه أو إلى كاتبه. وفي الترجمة السبعينيّة يتصدّر هذا المزمور عنوان مختلف: "في النهاية، في التسبيح، من أجل الثامن. مزمور لداؤود".

[٧] يُتلى هذا المزمور في صلاة النوم الكبرى.

والمقصود هنا بـــ" في النهاية" ربّما ما يرادفه في "الثامن"، أي المعنى الاسختولوجيّ للدهر الآتي. إنّ هذا الدهر هو أسبوع، ويليه اليوم الثامن بدء الدهر الآتي... ولليوم الثامن لاهوت طويل في الكتاب المقدّس. اليوم الثامن هو إذن ما بعد أسبوع هذا الدهر، إنّه يوم الدينونة، إنّه بدء الدهر الآتي، إنّه يوم القيامة أو العنصرة، اليوم الذي لن يعروه مساء[٨]. لـــ"ذيذيموس"، إنّ الحياة البتوليّة والرهبانيّة التي هجرتْ عالميّات هذه الدنيا هي شكل من لون الحياة الآتية[٩]. وربّما تصدّر هذا الانتظار الأخرويّ المزمور السادس لأنّه ينتظر حكم الله العادل في المنتهى على أعداء الإنسان وظروف هذا الدهر غير المؤاتية.

(١) يا ربّ لا بغضبك توبّخْني، ولا برجزك تؤدّبْني

بمشاعر الانسحاق العميق، يرفع المرنِّمُ يديه وصلاتَه إلى الربّ، يعترف بصدق بأنّه يستحقّ فعلاً كلَّ غضب إلهيّ والرجز أيضاً. هذا هو الحكم العادل على خطيئته الكبيرة، إنّها تستحق كلّ ذلك. ولكن غضب الله ورجزه بالنسبة له يعني الموت تماماً، إذ لا تقوم حياة دون الله!

لا يرفض هنا المرنّم "التأديب"[١٠]! "مغبوط الإنسان الذي يؤدّبه الربّ"[١١]. إنّ الربَّ يمحّص أحبّاءه كما الذهب في البوتقة. تأديب الربّ عنايةٌ ومظهرُ محبّة. لذلك يُروى أنّ أحد الرهبان راح يبكي سائلاً الله ألاّ يرفع عنه

---

[٨] القديس غرغوريوس النيصصي، إصدار W. Jaeger، ص. ٨٤؛ ثيوذوريتوس أسقف قورش، [PG 80, 991B]؛ إفسابيوس أسقف قيصرية، [PG 23, 120].

[٩] PG 39, 1176.

[١٠] ثيوذوريتوس أسقف قورش، [PG 80, 991].

[١١] أيّوب ٥، ٧.

التجارب؛ فكلّ تجربة وضيقة هي تأديب، يختبر فيه الإنسان إلى جانب الصعوبة المؤازرةَ الإلهيّة ورفقةَ الربّ الراعي، فيختبر إذن التعزيات الإلهيّة.

لكن شعور المرنّم هو أنّ خطيئته تجاوزت حدود التأديب، وتستحقّ كلّ عقاب من الغضب والرجز، إنّ خطيئته جسيمة في عينيه، ولكن ليس من مخرج سوى الالتجاء إلى الحنان الإلهيّ بدل عدله! لقد سئم المرنّم خطيئته وكرهها واعتبرها جسيمة تستدعي غضب الله؛ ولكن ذلك يقوده ليس لليأس بل للصراخ إلى الله الحيّ الحنون! عندما تشتدّ المصاعب، علينا أن نشدّد صلاتنا ونرفع صوت صراخنا. "حيث تكثر الخطيئة تكثر النعمة". وحيث الشدّة قويّة والضعف كبير هناك الحاجة للصلاة الحارّة والتضرّع الصادق. "أدِّبْني أبويّاً وليس قضائيّاً، طبِّبْني من جراحات ضعفاتي ولا تعاقبْني، لا تبادلْ خطيئتي بعقوبتها المحقّة، لكن بمحبّتك للبشر وتحنّنك اشفِني"، كما يشرح ثيوذوريتوس.

بالطبع إنّ هذه الصور البشريّة، من الغضب والرجز، هي طبائع بشريّة ليست في الله. لكن المرنّم ككلّ إنسان يتكلّم مع الله بلغته البشريّة ليعبّر عن حقيقة علاقة روحيّة. هكذا الأب يتقبّل تمتمة طفله ولو كانت بلغة غير طبيعيّة. فلا يمكن للإنسان أن يتكلّم عن أمور بلغةٍ تختلف عن لغته! يسهل التكلّم عن الأمور المادّية، لكن الكلام مع أو عن أمور غير مادّية (تختلف عنّا) يحتاج إلى لغة رمزيّة من عالمنا الماديّ. هكذا في الحياة اليوميّة، نقول: "آلمني شرُّه"، "بدّلتُ فكري"، "مرضتْ نفسي"... ونَصِفُ أموراً لا مادّية بأفعال من إطارنا الماديّ، وما هو غير ملموسٍ بتعابير ملموسة. وهذا ينطبق على لغة

تعاملنا مع الله كحقيقة غير مدركة ماديّاً، وذلك للتعبير عن معرفة عميقة أو شعور حقيقيّ.

(٢) ارحمني يا ربّ فإنّي ضعيف

ارحمْني يا ربّ، لأنّي بقواي الذاتيّة أنا عاجز. أنا أطلب ليس فقط أن تحوّل غضبك عنّي وألاّ ترجزني، بل أيضاً أن تمدّ إليَّ يدَ المساعدة. يا ربّ عدلك لا ينقذني، رحمتُك فقط هي متّكلي، رحمة تصفح وتسند!

ضعيف أنا أمام الأعداء وتجاه الشدائد التي قويت عليّ. ضعيف أنا أمام "العدوّ قاتل الإنسان"، الذي يترصّدني كالأسد يريد أن يبتلعني. ضعيف أنا لأنّ الخطيئة أنهكتني. ضعيف أنا أمام أهوائي ونـــزواتي التي تغلبني. ارحمني يا ربّ! أنت رحوم للجميع، ولكن بالوقت ذاته لمن يظهر توبة. إنّك تريد أن ترحم الجميع، ولكن لا يمكنك ذلك إلاّ مع مَن يرحم ذاته بالتوبة[١٢].

"إن كنتَ للآثام راصداً، يا ربّ يا ربّ مَن يثبت لأنّ من عندك هو الاغتفار"[١٣] وليس الانتقام ولا المقاضاة. فإنّه لا يتقبّل رحمتك مَن لا يعترف بضعفه. التواضع وحده يستقطب الرحمة، التي لا يدفع ثمنها أيُّ شيء.

- **اشفني يا ربّ، فإنّ عظامي قد اضطربتْ**

لقد آلمتني خطيئتي حتّى العظم. عندما يبلغ الألم النفسي حدوداً كبيرة ينعكس على أعضاء الجسد ذاتها. هكذا الأحزان تولّد صداعاً في الرأس وآلاماً

---

[١٢] القديس يوحنّا الذهبيّ الفمّ، [PG 55, 72].

[١٣] مز ١٢٩.

في الحشا، وأقساها يؤلم حتّى العظم. لقد اضطربت العظام من الألم الروحيّ الذي لا يمكن تصوّره. رحمتك يا ربّ وحدها ستشفي عظامي الذليلة.

(٣) ونفسي قد اضطرمتْ جدّاً[١٤]

كما الريح القويّة تضرب البحر فتصل إلى أعماقه فيضطرب وترتفع أمواجه، هكذا جسامة الخطيئة ضربت أعماق نفسي فاضطربت وفقدت سلامها وليس لها بعدُ راحة، بحسب تعبير القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ.

- **وأنتَ، يا ربّ، حتّى متى؟**

هذه هي علّة آلامي كلِّها، غيابُك وأنك تصرف وجهك عني، بسبب خطيئتي. هذا ألمٌ لا يُحتمل. غيابك يا سيّدي جعل عظامي تنـــزعج ونفسي تضطرب. فحتّى متى يا ربّ، لقد استنفذتُ كلّ طاقة ووصلت إلى النهاية، "فخلِّصْني قبل المنتهى". تأديبك يا سيّدي نـــزل عليَّ قاسياً، وغيابك لم يعدْ محتمَلاً عندي.

(٤) عدْ، يا ربّ، نجِّ نفسي، خلِّصْني من أجل رحمتك

إنّك يا ربّ لا تترك الإنسان يموت بل تريده أن يعود ويحيا. ها أنذا قد وصلت إلى شفير الهاوية، إنّك تؤدّب ولا تهلك. فعْد يا ربّ، ألم يَحُنْ زمن الصفح؟ فإنّ غضبك أنهكني، عدْ يا ربّ! طردتْكَ خطيئتي، لكن عدْ يا ربّ برحمتك. لا تنتظر يا ربّ فضائلي بل بادرْ أنت برحمتك.

---

[١٤] أنظر: يو ١٢، ٢٧.

(٥) لأنّه ليس في الموت مَن يذكرُك، ولا في الجحيم مَن يعترف لك

هذا ما اعتقده اليهود في زمن النبيّ داؤود، أنّ الجحيم هو المكان الرهيب الذي فيه ينتظر الأمواتُ، ولا يزوره الله! وهل هناك موت أصعب من غياب الله. عدْ يا ربّ ما دام هناك زمان لي بعدُ للتوبة، عدْ يا ربّ بادرْ إلى رحمتي فإنّي أهلك. لأنّه لا توبة ولا أعمال لي بعد الموت، فهناك لا يذكرك أحد ولا يعترفون لك بالشكر والتسبيح.

التأمّل بالموت تدريب روحيّ ضروريّ في الحياة المسيحيّة. ليس التأمّل بالموت احتقاراً للحياة الحاضرة، بل هو إكرام لكلّ لحظة فيها. يقول السلميّ مَن يتأمّل بالموت لا يخطئ." ذكر الموتِ موتٌ كلّ لحظة". يذكّرنا الموت بأنّ حياة كلّ لحظة ذات قيمة كبيرة. "سِيروا ما دام لكم النور"، "افتدوا الأيّام فإنّ الزمان قصير". عجزتُ يا ربّ عن النهوض بمفردي. عدْ يا ربّ الزمن يجري وزمن التوبة لديّ لم يبدأ بعدُ! بادرْ يا سيّدي إلى إنقاذي ونهضتي قبل الانقضاء.

(٦) تعبتُ في تنهّدي، أحمُّ في كلّ ليلة سريري، بدموعي أعوِّم فراشي

تنهّدات عميقة حارّة وكثيرة أتعبتني. التنهّد هو التعبير الأقصى عن الضيق وعدم الاحتمال. والدموع هي أعمق وأنبل مظهر للمشاعر الحارّة. يعلّمنا هنا المرنّم أن نختلي كلّ مساء إلى ذواتنا ونفحص أنفسنا ونذرف الدموع الغزيرة على خطايانا. كلّ ليلة كان المرنّم يبكي على اضطراب علاقته بالله وغياب وجه الله عنه، ويرثي لشعوره بعدم الرضى الإلهيّ. "بهطل

الدموع" قدَّس النسّاك ذواهم. لا تعلو على هذه الصور أيّة كلمات تحاول أن تعبّر عن الألم والشوق الجريح في قلب الإنسان الذي أنهكته غربته عن الله.

الليل هو وقت الخلوة والعودة للذات بعد نهار الأعمال والأشغال. في الليل يجمع الإنسانُ ثمن أعمال يومه. الليل هنا هو الهدوء والصفاء ولحظات الوقفة أمام الله في الصلاة. "الصلاة محكمة" يقول السلميّ. مَن وقف أمام حاكم أرضيّ يفهم معنى الوقفة في الصلاة أمام الله!

دموع التوبة تغسل، إنّها معموديّة ثانية بعد المعمودية بالماء والروح. "مجاري المياه لوقت الحريق، ومجاري الدموع لزمن التجربة"، يقول أفرام السريانيّ. "لقد لخّص الآباء القدّيسون كلّ نشاط الراهب في كلمة "حياة البكاء" (الأسقف أغناطيوس بريانتشانينوف). ولقد طوّب يسوع الباكين لأنّهم سيضحكون. هذه هي قوّة الدموع.

(٧) تعكّرتْ من الغيظ عيناي، عَتُقْتُ في جميع أعضائي

عندما تكره الخطيئة عندها تبدأ التوبة. لقد أدمعتْ عينا داؤود من شدّة غيظه من خطيئته! لقد عادت الكرامةُ الصحيحة بداؤود إلى دموع التوبة كما قادت هكذا كرامةُ الابن الضال إلى بيت أبيه من مذلّة الحياة مع الخنازير!

عَتقتُ في جميع أعضائي، لقد شاخ كلّ عضوٍ فيَّ نتيجة العذاب الذي برّح بي. هناك ترجمات تقول "عتقت في جميع أعدائي"، أي صرتُ كالشيخ الهرم بين أعدائي الأقوياء، والمعنى أنّ المرنّم يصف هنا حالة الانهيار الكامل، وحالة التعب حتّى الحدّ الأقصى من جراء خطيئته وغياب الله!

(٨) ابعدوا عنّي يا جميع فاعلي الإثم، فإنّ الربّ قد سمع صوت بكائي

انقلاب كامل! هنا فُتحتْ أبواب التوبة للمرنّم! من صرخات البكاء والشعور بالنهاية والوصول لشفير الهاوية، يقف هنا المرنّم شاخصاً بالرحمة الإلهيّة، ويبدأ هنا نهضته وتوبته بصرخة ثقة وعزم روحيّ لا مثيل له.

ابعدوا عنّي يا جميع عمال الإثم! لقد كان جزءٌ كبير من ألمه هو هزء غير المؤمنين به وبإيمانه! لقد انتفض من نومه، من موته، وقام إلى الحياة مع الله، لقد رفعتْه نعمة الله ورحمته إلى التوبة.

"سمع الربّ صوت بكائي" ولقد زال الكَرب. لقد قبل الربّ أن يلتفت إليّ ولا يعني لي بعدُ شيئاً لا ضعفي ولا حتّى خطيئتي تقدر على أسْري في قيود اليأس. "أقوم" وأعود إلى أبي وأقول له "يا أبي أخطأتُ إلى السماء وأمامك"، إنّه سيقبلني كأحد أبنائه وليس كأجرائه.

(٩) سمع الربّ تضرّعي، الربّ تقبّل صلاتي

"طوبى للباكين فإنّهم سيفرحون"! لا تشتري الرحمةَ الإلهيّة أعمالُنا. "المستحقّ" هو فقط "المنسحِق". لا سبيل إلى استعادة الرضى الإلهيّ إلاّ بالتواضع والتوبة. الدموع شِركة عجيبة تُعيدُ ربطَ العريس مع عروسه، أي الربّ مع النفس البشريّة (مكاريوس الكبير). العين الباكية هي جرنُ لمعموديّة التوبة والتجديد. لو لم يهبْنا الله نعمة الدموع ويسمع بكاءنا لتعذّر خلاص كثيرين (يوحنّا السلميّ).

(١٠) فليخزَ ويضطربْ جميعُ أعدائي، وليعودوا ويخزوا جدّاً سريعاً

يؤكّد المرنّم قيد هنا "خلاصه" من ماضيه، وولوجَه في عالم التوبة، عالم التجديد؛ لقد استجاب الله لدموعه؛ تقبّل بدموعه الغفران وقبِل الربُّ توبتَه؛ لقد تصالح مع الله، بعد أن كان يشعر بأنه قد أغضبه ولا يستحقّ إلاّ رجزه؛ الآن يطمئنّ أنّه ممكن له أن يخاطبه ويناجيه ويسبّحه ويطلب عونه ويناله!

لقد خرج اللهُ من صمته بعد أن رأى دموع التائب. لقد خرج الله فليتبدّدْ جميع أعدائه ويخزوا، لا بل يخزوا سريعاً، آمين.

صـــلاة التـــوبـــة

تأمّل في المزمور الخمسين[١٥]

هل تستطيع الحكمة أن تختار المواقف الصحيحة للحياة دائماً؟ نعم ولكن في الأحرار! كم من الناس امتلكوا الحكمة، فسليمان "الحكيم" ذاته وأبوه داوود الملك والمرنّم امتلكا من الحكمة الكثير، لكنّهما أخطأا. مهما كان الإنسان حكيماً إذا سقط تحت عبوديّة الأهواء عفواً أم عمداً عن معرفة أو عن غير معرفة يَصِرْ عبداً لها ويسقط من مرتبة السيّد إلى مصافّ العبيد ومن علوّ الحكماء إلى بقعة الجهلاء.

"الجهل" هو السبب الأوّل لارتكاب الخطيئة لأنّه عندما نجهل سبب سعادتنا ننقل مركز غبطتنا من الله إلى الشهوات. وهذا هو عدم الحكمة بعينه. لكن الحكمة غالباً ما تستيقظ. ولا يترك اللهُ عبيدَه الذين أحبوه، مهما ابتعدوا عنه "بجهل" أن تقودهم الأهواء والميول، وإنّما "يشاء عودة الخاطئ فيحيا".

---

[١٥] يُتلى هذا المزمور في صلاة نصف الليل، السحر، الساعة الثالثة، النوم الصغرى والكبرى.

هذا ما يحصل مع كلّ إنسان وهذا ما حصل مع النبيّ داوود، ذاك الرجل الهائم بمحبّة الله، فقد تملّكتْه الشهوة يوماً، من مشهد مفاجئ، فعطّلت فيه حكمتَه. وانقلب الملك الحكيم المحبّ لله إلى عبد خاضع "لشهوته" ونسي، بسكرى هواه، ناموس الربّ الذي كان لذّته وبه كان يلهج ليل نهار.

إذا تملّك الهوى قلبَ الإنسان أعمى بصيرته ودفعه إلى تحقيق رغبته دون وازعٍ من ضمير ولا من ناموس أو من محبّة أخويّة. هكذا أسقطت الشهوةُ داوودَ في خطيئة القتل أيضاً. فبينما كان هذا القلبُ عفيفَ الحبِّ لله انقلبَ إلى مرتع للرغبات، عندما لم يسيطر على حواسه الخارجيّة ولم يتيقّظ في طريقه مرّةً. وطمس الهوى، في قلب داوود، كلّ حسٍّ بالعدالة والرأفة وغطّى على كلّ ما جرى. وتناسى الملكُ العادلُ جرمه وفعله.

إلى أن أرسل الله نبيَّه "ناثان"، الذي طرح على الملك في "مثلٍ" قصة ظلمٍ؛ (كانت قصَّتَه عينها). فحكم داوود فيها بغضب إلهيّ وعدل، وللوقت قال له ناثان النبيّ: أنت هو الظالم أيّها الملك.

عندها أيقظ الغضبُ حكمةَ داوود النائمة ونـــزع عنه سيطرة الهوى وعماه. وانتفض النبيّ كالجريح فأسرع إلى إرضاء الله، فجاءت عباراتُه من أقوى كلمات التوبة التي عرفتها البشريّة.

إنّ "المزمور الخمسين" هو "صلاة التوبة". كلّ الصلوات تحمل في طيّاتها "توبة"، لكن بعض الصلوات وخاصّة بعض المزامير تسمّى "مزامير التوبة"، لما تتحلّى به من عبارات حارّة وتنهّدات عميقة. صلاة النوم الكبرى، مثلها الصغرى تقريباً، تحتوي على أجمل هذه المزامير، أمّا المزمور الخمسون فهو قمّة

هذه المزامير. لهذا ندرك سبب استخدامه المتواتر في الكنيسة بشكل مميّز عن سائر المزامير الأخرى. فبه تبدأ صلاةُ منصف الليل ويُعاد في السحر أيضاً وفي صلوات الساعات نكرّره، أضفْ إلى ذلك صلاة النوم، وهذا يوميّاً. ولعلّه المزمور الأوّل الذي يحفظه أغلب المؤمنين غيباً ويردّدونه.

الوقفة عند هذا المزمور الرائع والتأمّل فيه ضروريّان، لكي تنتقل الصلاة من الشفاه إلى الأذهان ومن ثمّ إلى القلب. عندما نصلّي يتوجّب علينا أوّلاً أن نفتح شفاهنا وأن نخصّص الوقت وأن نجد لها، إن أمكن، المكان. ثمّ بعد ذلك يُتطلَّب منّا أن نفهم بالذهن ما نقرأ وما نقول، أن نصلّي بذهننا، أن يحضر الذهن في الصلاة، وعندها لا بدّ من أن تنـــزل الصلاةُ إلى القلب وترويه.

(العنوان) في النهاية، مزمور لداوود، عندما دخل إليه ناثان النبيّ، بعدما دخل إلى بتشابع إمرأة أوريّا

يبدأ هذا العنوان بكلمة في "النهاية" أي يتكلّم عن الأخرويّات. فالمزمور ينتهي بتلك الدعوة أو النبوءة: "ولِتُبْنَ أسوار أورشليم"، فداوود النبيّ رغم خطيئته، كما سنرى في مجرى المزمور، لم يخسر روح الله كليّاً وبقيتْ لديه موهبة النبوءة. لهذا يقول في المزمور "وروحُك القدوس لا تنـــزعْه منّي".

والآية (٢) توجز تاريخ قصّة داوود مع خطيئته. الواضح أنّ داوود لم يتبْ بالبداية، بعد خطيئته على الفور، ولكن "بعدما" أي بعد زمن وفترة فاصلة. دخل عليه النبيّ ناثان، بل أرسله له اللهُ إليه بوقَ توبة، ليعود هذا القلبُ إلى يقظته وإلى هواه الحقيقيّ الصحيح، ليعود قلب داوود إلى محبّة الله وعشق إرادته فقط.

يقول فمّ الذهب، إنّ هذا المزمور "مفيد للخاطئ فعلاً، الذي أهمل خطيئته زمناً طويلاً ونام عليها"، فهذه كانت حالة داوود. إن هذا المزمور قادر، عندما نعرف جيّداً قصّته، أن يوقظ كلّ نائم أو مستسلم لخطايا قديمة أيضاً. التوبة لا تعرف حواجز زمنيّة. يكفي استيقاظ الضمير وأن نتطهَّر، ونُدخِل السلامَ الحقيقيّ إلى قلوبنا، وأن نتصالح مع الله. كما أنّ هذا المزمور مفيد أيضاً للمبتدئين في الإيمان، فهو "يعلّمهم ألاّ يسهوا وأن يتيقّظوا، وألاّ يتكاسلوا"، فهو يفيد الخاطئ لكي لا ييأس، والبارّ لكي يتيقظ دوماً ويسهر على خلاصه.

(١) ارحمني يا الله، كعظيم رحمتك، وكمثل كثرة رأفاتك امحُ مآثمي

هذه هي الصلاة الحقيقيّة، إنّها وقفةُ خشوعٍ أمام الله وطلبٌ لرحمته، إنّها الشعور الحقيقيّ بأنّي خاطئ، إنّها معرفة الذات والإقرار بالضعفات. لكن الجميل هنا في صلاة داوود، أنّه يستحلف الله لكي يرحمه كثيراً، لا على مقدار حرارة طلبه، فصلاته تبدو له في عينيه باردة وغير مستحقّة، ولكن يستحلفه بكثرة رحمته. أنا أخطأتُ كإنسان فأنتَ ارحمْني كإله. هكذا يشرح أغسطينوس المغبوط: إنّ مَن يشعر حقّاً بأنّ خطيئته جسيمة، يطلب رحمة عظيمة. لهذا مَن يُخطئ سهواً يشعر بشكل من الأشكال بأنّه يطلب مثلاً رحمة صغيرة من الله. أمّا مَن يشعر بأنّ خطيئته هي جرمه ومسؤوليّته أمام الله، يطلب رحمة عظيمة، بكلام آخر: يطلب بحرارة.

وهنا على غير عادته، ينادي داوود الله قائلاً "يا الله"؛ وهو الذي اعتاد دائماً أن يقول "يا الله إلهي"، وأن يكلّم اللهَ كأب وربّ شخصيّ. هنا يبدو أنّ

ليس لداوود جرأة تنظر إلى السماء وتسمّي الربّ إلهها، رغم إيمانه ويقينه بذلك، لكن الخطيئة سرقت منه "دالّة" مناداة الله مضافاً إليه ياء المتكلّم. مَن اعتاد أن يقول "يا الله إلهي إليك أبكّر"، و"هم سقطوا أمّا نحن فباسم الربّ إلهنا نهضنا"، كانت له الدّالة والآن ها قد فقدها.

من عادة أشعار المزامير، إذ يشعر قلب المرنّم بأنّ الكلمات لا تعبّر، أن يتوسّع في الشرح. لذلك في بيت الشعر، الشطر الثاني يشرح الأوّل وذلك بأسلوبَين: إمّا بالإسهاب، أي يتابع المعنى ذاته بصور أخرى وكلمات موازية تشرح الشطر الأوّل؛ وإمّا أن يشرحه بصورة عكسيّة، أي أن يرفض نقيض الشطر الأوّل.

هنا في الآية (٣) يسهب الشطر الثاني بشرح الأوّل، فيقول ارحمْني كعظيم رحمتك، ثمّ وكمثل رأفاتك امحُ مآثمي. وهذا ما يتبعه غالباً في هذا المزمور، فهناك يستحلف الله بعظيم رحمته وهنا بـــ "كثرة الرأفات"، هناك يطلب رحمته وهنا يطلب الغفران. أمّا في المزمور مثلاً الـــ ٣٩، نراه يميل إلى الشرح بشكل معاكس. فيقول مثلاً: "بشّرتُ ببرّك في الجماعة العظيمة"، "هوذا شفتيَّ لم أغلقْهما"، "لم أكتمْ عدلك في وسط قلبي...". فمعنى الشطر اللاحق يوضح السابق ولكنّه يستخدم المعنى المعاكس.

هنا إذن يطلب المرنّمُ رحمةَ الله كعظيم رحمته، ثمّ يسهب ويتابع: وكمثل رأفاتك امحُ مآثمي. "فالله رحوم ورأوف وطويل الأناة، ليس إلى الدهر يسخط ولا إلى الأبد يحقد". تسمح رأفةُ الله لداوود بالتغنّي أكثر برحمته، فكما أنّ الله عظيم الرحمة هو كثير الرأفات.

هنا يستخدم داوود كلمة مآثمي. كلمات مثل: خطيئة وإثم وذنب، يتبدّل استخدامُها بالكتاب بشكل عفويّ. بشكل عامّ خطيئة هي كلّ خطأ،كان بمعرفة أو غير معرفة، طوعاً أو كرهاً. أمّا مسؤوليّة خطيئة عن أخرى فتختلف. فالإثم فهو ما يتمّ من الخطايا بمعرفة. الإثم هو التعدّي، أي أن يكسر الإنسان الوصايا التي يعرفها. وداوود هنا أَثِمَ مرّتَين إلى الله وناموسه؛ وهو يعترف هنا بإثمه وليس فقط يشكو خطأه، إنّه يقرّ بكامل ذنبه ومسؤوليّته "ولا يتعلّل بعلل الخطايا".

(٢) اغسلْني كثيراً من إثمي، ومن خطيئتي طهِّرْني

لا أطلب أن تمحو فقط مآثمي من سفر حكمك الأخير والرهيب، لستُ أرجو صفحاً عن ذنب اقترفته فقط، وإنّما أطلب أن تخلِّصني من خطيئتي التي كرهتها، امحُها ليس من سجلاّتك لكن من قلبي، انــزعْها ليس من حسابك لكن من حياتي. لهذا يشرح النبيّ ذلك بصورة أوضح ويقول: "ومن خطيئتي طهِّرْني"، طهِّرْني من قروحي التي تؤلمني. هذه هي التوبة، كما يقول القدّيس اسحق السريانيّ، هي أن نكره خطيئتنا. جاء المسيح لينــزع الشرَّ من جذوره، وليس ليمحو مجرّد سهوات. لنتطهَّر لأنَّ أنقياء القلوب فقط سوف يعاينون الله. وكلمة "طهِّرْني" أقوى من "اغسلْني". أي اغسلْني حتّى أطهُر. لا تُبْقِ فيَّ ولا أثر لحبّ خطاياي.

(٣) لأنّي أنا عارف بإثمي، وخطيئتي أمامي في كلّ حين

كان داوود ملكاً، ورغم كثرة المشاغل ورفعة المجد وزهوة المركز وعنفوان السلطة، فإنّ كلّ ذلك لم يجعلْه يسهو وينسى خطيئته. "إنّي عارف بإثمي"، أَيوجد اعتراف أعظم من هذا؟

ولستُ فقط أقرّ وأعترف بأني أثمتُ فعلاً، بل إنّني أتذكّر خطيئتي على الدوام، ليل نهار أتذكّر جسامة خطيئتي. هذه هي "التوبة الدائمة". إنّ المسيحيّ ينسى أتعابه من أجل المسيح ويتذكّر خطاياه. عندما يقول بولس: "أنسى ما خلفي وأمتدّ إلى ما هو أمامي"[١٦]، لم يقصد أنّه ينسى خطاياه، وبالأخصّ اضطهاده السابق للمسيحيّين، وإنّما أنّه ينسى أتعابه فهو بقي دائماً يسمّي ذاته "سقطاً" وآخِرَ الرسل وليس أهلاً ليُدعى رسولاً "لأنّي اضطهدتُ كنيسة المسيح"[١٧]، هذه كلُّها يتذكّرها دائماً، وهي أمامه في كلّ حين، لكنّه ينسى "ميتاته": أنّه جُلد من اليهود خمس مرّات، أنّه ضُرب بالعصي، أنّه رُجم وانكسرت به السفينة ثلاث مرّات. ينسى اتعاب أسفاره والأخطار التي أحدقت به واللصوص، ينسى التعب والكدّ والأسهار والجوع والعطش والأصوام والبرد والعري وعدا ذلك أيضاً تعب الاهتمام بالكنائس واحتراقه عندما كان يسقط البعض أو يضعف آخرون، ينسى ما مضى، ولو أنّه بات – كما يقول لأهل فيلبّي– يشتهي أن ينتقل إلى المسيح[١٨]، ويمتدّ إلى الأمام وكأنّه لم يتعبْ بعد من أجل المسيح. في رسالته هذه إلى أهل فيلبّي يبدأ بولس

---

[١٦] فل ٣، ١٣.

[١٧] أنظر: ١ كور ١٥، ٨–١٠.

[١٨] فل ١، ٢٣.

الرسول بتذكير أحبّائه بقيوده وبجسد الآخرين الذين زادوا على وثقه ضيقاً[19]، لكنّه هو يفرح بالربّ وبالأتعاب التي تمّت من أجله، هذه الأتعاب هي فرحه وكنـــزه وينسى ما وراء ذلك ويمتدّ إلى الأمام[20]، لأنّه "يسعى" ولن توقفه قيود ولا عذابات. "كونوا متمثّلين بي" يتابع بولس الرسول[21].

هذا ما يعلّمه القدّيس سلوان الآثوسيّ: "اجعلْ ذهنَك في الجحيم ولا تيأس". خطيئتي أمامي في كلّ حين ولكن لا أيأس وإنّما أُسرِع في السعي. تذكُّر الخطايا لا يعني استسلاماً لها أو يأساً بسببها، ولكن يقظةً دائمة وتواضعاً أمام الله مستمرّاً. وهذا هو معيار التوبة الدائمة ومقياسها. إنّ الله على لسان نبيِّه أشعياء يوضح لنا أن الاعتراف بالخطيئة هو سبب غفرانها "أنا الماحي ذنوبك... وخطاياك لا أذكرها، ذكِّرْني (بخطاياك) فنتحاكم. حدّثْ أنتَ لكي أبرّرَك أنا"[22].

(٤) إليك وحدك أخطأتُ والشرَّ قدامك صنعتُ

هكذا وبّخ النبيّ ناثان داوود: لماذا فعلتَ الشرّ في عينَي الربّ وأفسدتَ كلماته[23]؟ خطيئة الإنسان تجاه قريبه هي نحو الله أيضاً وأوّلاً، فهي قبل كلّ شيء تعدٍّ على وصيّة الربّ: أحببْ قريبك كنفسك.

---

[19] فل ١، ٦.

[20] فل ٣، ١٣.

[21] فل ٣، ١٧.

[22] أش ٤٣، ٢٥-٢٦.

[23] ٢ ملوك ١٢، ٩.

وحّد المسيحُ ذاته دائماً مع الفقراء والضعفاء: "ما فعلتموه بأحد هؤلاء الصغار فبي قد فعلتموه". إنّ مَن يسيء إلى الابن بالفعل يخطئ إلى أبيه. لقد أخطأتُ بالفعل إلى الناس، يقول النبيّ داوود، إلى أوريّا وإلى امرأته، لكنّهم عبيدي! أمّا إليك فقد أخطأتُ قبل الجميع. الخطأ مع القريب هو تحدٍّ لك يا ربّ وتعدٍّ لوصيّتك وإساءة إليك قبل الجميع.

أخفيتُ الشرّ عن عيون الناس واقترفتُ الإثم بالسرّ مستخدماً مختلف الحبائل، لكنّه كلّه كان أمام عينيك اللتَين ترقبان كلّ شيء وتفحصان الكلى والقلوب. أمام وجهك أخطأتُ إليك و لم أستحِ.

يسمّي داوود النبيّ شروره وخطاياه بالمفرد "شرّاً" وذلك لأنّ الخطيئة الأولى تجلب الثانية وهكذا. عندما يميل الإنسان إلى "الشرّ"، ويبدأ بتجاوز الوصايا الإلهيّة فإنّ الشرّ يلد مضاعفاته، يكفي فقط أن نترك له الزمن الكافي. كلّ ما هو مخالف للوصيّة الإلهيّة ولا يخدمها هو "شرّ". ومَن تَعَدَّى إحدى الوصايا صار متعدّياً لها كلّها.

- **لكيما تصدق في أقوالك وتتغلّب في محاكمتك**

تشرح هذه الكلماتِ كلماتُ المزمور (١٤٢): "لا تدخلْ في المحاكمة مع عبدك، فإنّه لن يتزكّى أمامك أيّ حيّ". لقد غلب اللهُ داوودَ بالمحبّة. أقام اللهُ داوودَ ملكاً عندما كان الأخير راعياً، وأعطاه وعوداً لا يستحقّها إنسان، ومجّده بأمجاد لا يحلم بها آخر. أمّا أنا، يقول النبيّ داوود، فلقد أظهرتُ عدم عرفاني للجميل. أنتَ صدقتَ بوعودك، أمّا أنا فقابلتُك بما لا يليق، لذا سوف تتغلّب في محاكمتك. في المحاكمة سوف تتبرّر أنت وسوف أُدان أنا. وأيّة

مداينة تكون مدايني أنا المضبوط بالخطايا! عندما ستحاكمني سأكون مستحقّاً عدلك. فأنا علّةُ محاكمتي وسببُها، أمّا أنت فمبرَّر وعادل بكلّ ما تصنع بنا.

(٥) ها أنذا بالآثام حبل بي، وبالخطايا ولدتني أمّي

هنا يغوص داوود النبيّ إلى أعماق ذاته ويرى مقدارَ عتمة الأهواء الداخليّة وصعوبة المحيط الخارجيّ. فبعد أن "يعترف" بخطيئته ينظر إلى ذاته المجبولة بالشهوات وإلى عالمه الممزوج بالشرور. يتكلّم عن هذه الحالة "اللاطبيعيّة" السائدة اليوم. الحياة الطبيعيّة للإنسان هي تلك التي كانت بالفردوس. والحياة اللاطبيعيّة أو ما دون الطبيعيّة هي التي نحياها على أرضنا، هذه تتّصف بالآلام والموت والتعب وغدا عالُمها ملآناً شروراً. هذه لم تكن من قبل لكنّها دخيلة على حياة البشر. إنّها حالة ما بعد الخطيئة، لا بل يمكن تسميتها حالة الخطيئة لأنّها جاءت من الخطيئة ونتجت عنها. حتّى الولادة بالمخاض والآلام، كما هي الآن هي من حالة الخطيئة. يولد الإنسان من مولده في "عالم الخطيئة". "بالخطايا ولدتني أمّي". هنا يتكلّم داوود عن حياته كلّها الميّالة إلى الخطيئة والمحاطة بعالم يجرّ إليها. فداوود لا يستغرب كثيراً أنّه سقط ويعترف بأنّه خاطئ في دنيا خاطئة!

هنا لا يقصد النبيّ أنّ الحبلَ والزواجَ هما إثم وخطيئة، فإنّ الزواج مبارك؛ لكن يتكلّم عن اختلاط العالم بعناصر ما بعد الخطيئة. وكما يقول فمّ الذهب: "إنّ ما نتعلّمه من هنا ليس أنّ الجسد هو سبب الخطيئة أو أنّ الطبيعة هي دافع حتميّ إليها (وإلاّ لكنّا لا نستحقّ عقوبات)، وإنّما أنّ طبيعتنا

والمحيط قابلان وميّالان للخطيئة بعد السقوط، وذلك بسبب أهوائنا وفساد العالم، لكنّنا نغلبها بحكمتنا وبأتعابنا، عندما تتّحد الحكمة مع الجدّ والتعب".

(٦) لأنّك قد أحببتَ الحقّ، وأوضحتَ لي غوامض حكمتك ومستوراتها

هنا تظهر بالفعل توبة داوود الحقيقيّة: إنّي أعترف بكلّ ذلك وبخطيئتي وأجعلها أمامي كلّ حين، لأنّك تحبّ الحقّ ولا يفيد أمامك لفّ أو دوران أو إنكار، ولا يرضيك تبرير كاذبٌ للذات. أنا خاطئ وقد أخطأتُ. ولا يمكنني عندما آتي لمصالحتك أن أغيظك أيضاً بغشٍ وتبرير. أنا أذنبتُ، نعم، فارحمْني وسأقول الحقّ لأنّك هكذا تحبّ. وعلاوة على ذلك، فإني أعيّر ذاتي أيضاً وأوبّخها، لأنّني فعلتُ الشرّ عن معرفة وليس سهواً. فأنتَ سبق لك وكشفتَ للجميع ولي بالأخصّ خفايا حكمتك ومكنوناتها. لم أقترفْ خطيئتي جهلاً كمَن لا يعرف الناموس، بل عمداً وبمعرفة فأنا أعرف مبادئ الناموس وحتّى أيضاً أسراره وخفاياه، ورغم كلّ ذلك فقد أخطأتُ.

(٧) تنضحني بالزوفى فأطهر، تغسلني فأبيضُّ أكثر من الثلج

بعد كلّ ذلك الاعتراف بالخطيئة ومعاينة العتمة الداخليّة والوسخ والبشاعة النّاتجة عن أعمال الظلمة ينظر داوود بثقة ورجاء إلى يدَيّ الربّ اللتَين سوف تغسلانه، لا بدّ، من إثمه.

"الزوفى" ترجمة لكلمة (υσσόπο) وهو نبات ذو قوّة تطهيريّة عاليّة ينظّف جدّاً. لذا يقول داوود، رغم كلّ ما وصلتُ إليه، لا بدّ أنّك سوف تطهّرني كما لو بالزوفى وسوف تعيدني أبيضَ كالثلج. كثيرٌ من الآباء مثل

كيرلّس الاسكندريّ وثيوذوريتوس وأثناسيوس الكبير، يرون بذلك نبوءة عن سرّ المعمودية المقدّس. والقدّيس إسيخيوس يراه رمزاً لعمل الروح القدس (الزوفى والتطهير).

(٨) تُسمعني بهجة وسروراً، فتجذل عظامي الذليلة

إنّك يا ربّ ستسامحني، وسوف أتأكّد من ذلك عندما- حتماً- سوف تسكب في نفسي عوض هذه العَبَرات بهجةً وسروراً. أنت ستحوّل الحزن المنسكب فيَّ إلى بهجة وغبطة من عندك.

خطيئتي أتعبتْني، وحتّى عظامي صارتْ ذليلةً واتّضعتْ وكلّتْ تحت ثقل إثمي. فرِّحْني، أَعِد البهجة ليس فقط إلى نفسي المتألّمة لكن إلى عظامي المتوجّعة أيضاً، اغرسْ فرح غفرانك. وبلسِمْ بمرهم محبّتك وصفحك جراحَ نفسي ليجذل أيضاً لحمي وعظمي. بالطبع إنّ انتقال الأحاسيس النفسيّة إلى الجسد هو أمر طبيعيّ، لأنّه يدلّ على عمق تلك الأحاسيس.

بعض الآباء يرون بهذه الكلمات نبوءة أيضاً عن المسيح. وكأنّ داوود يطلب من الله أن ينقذ الإنسان ليس فقط من الذنوب المقترفة بحقّ الناموس، وإنّما أن يشفي حتّى العظم واللحم، وهذا ما تمّ بجسد المسيح القائم كبداية لقيامتنا. وكأنّ "تجذل عظامي" هي نبوءة عن قيامة الجسد التي ستحصل لأوّل مرّة مع المسيح. من هؤلاء الآباء الذهبيّ الفمّ وكيرلّس الاسكندريّ.

(٩) اعرضْ بوجهك عن خطاياي، وامحُ كلّ مآثمي

ها أنذا أجمع خطاياي وأعترف بها وأضعها أمامي، ولا يمكنها أن تخفى عن ناظرَيك، لكن أنت اصرفْ وجهك عنها. هذا ما يؤكّده المغبوط أغوسطين وما يقوله الذهبيّ الفمّ بالحرف: "اكتبْ وسجّلْ أنت خطاياك في كتاب الله، وهو سوف يمحوها. لأنّك إن لم تكتبْها أنت فلا يمحوها، وإنّما سيطلب المحاكمة عليها". فالأحسن لنا أن نسجّلها نحن لتُمحى من فوق بدل أن نتناساها نحن وتسجَّل علينا إلى أن نواجهها أمام أعيننا في ذلك اليوم الرهيب (يوم الدينونة).

هذا ما يلظّي قلب داوود، أنّه أساء إلى مَن يحبّه، إلى الله. ولا يعرف كيف يرضيه ويسأل بخشوع مصالحته، أن يغضّ الطرف، أن يمحو الإثم، أن يُكثر الرحمات وأن يغسله. ويزيد كلّ شطر عبارة أخرى. فالمعاني تضيق عن أن تحتوي مشاعر الانسحاق وتحتمل حرارة التضرّع للمصالحة.

(١٠) قلباً نقيّاً أُخلقْ فيَّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدِّدْ في أحشائي

القلب، المقصود هنا ليس العضو الجسديّ بالطبع! سأل المسيحُ مرّة: "لماذا تفكّرون بهذا في قلوبكم؟"[٢٤]، فالقلب هنا مركز الأفكار. مرّات يعني القلبُ: الإرادةَ، والقرارَ، والميلَ، والرغبة الذاتيّة، كما جاء على لسان أشعياء النبيّ: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه أمّا قلبه فبعيد عنّي"[٢٥]. مرّات أخرى يعني

---

[٢٤] لو ٢٤، ٣٨.

[٢٥] ٢٩، ١٣.

القلبُ: الرضى، والسرور، والقبول: "فوجد الله داوود بن يسّى رجلاً حسب قلبه الذي يصنع كلّ مشيئته"[٢٦].

القلب هو مركز الكيان الإنسانيّ، الإرادة والرغبات، وهنا كلمة قلب يمكن تفسيرها بـــ"نفس"، أي طهِّرْ نفسي واجعلْها نقيّة. "اخلقْ" هنا لا تعني أنّه يطلب شيئاً غير موجود- وهذا ما يؤكّد عليه القدّيس باسيليوس الكبير- وإنّما كما يقول القدّيس كيرلّلس، اخلقْ هنا يعني جدِّدْ وأصلحْ. فقلب داوود ونفسه كانا نقيَّين لكنّه ملأهما هو فساداً وأفسدهما، والآن يطلب إلى الله أن يعيد فيه القلب والنفس إلى جمالهما الأوّل.

ويزيد داوود في طلبه فيسأل من الله روحاً مستقيماً. الروح المستقيم هو روح الحقّ، فالحشا هنا هو داخل الإنسان، أو بكلمة أخرى الإنسان الداخليّ. فاجعلْ يا ربّي روحي مستقيماً.كما أنّ القلب مركز الإنسان وشخصه فإنّ الحشا هو قرار أعماقه. هكذا يشرح طلبه بصورة ملحّة ومشابهة للأولى التي في الشطر الأوّل.

يؤكّد ثيوذوريتوس هنا أنّ المقصود ليس الروح القدس ولكن روح الاستقامة أي مفهوم العدل والحقّ والعقل السليم. كذلك القدّيس أثناسيوس يشرح الروح المستقيم بالضمير الحيّ.

(١١) لا تطرحْني من أمام وجهك، وروحك القدوس لا تنـــزعْه منّي

كما طلب داوود من الربّ أن يصرف وجهه عن خطاياه، يطلب هنا الأمر عينه، يقول: إنْ نظرتَ إليَّ ورأيتَني غير مستحقّ بسبب إثمي لا تطردني

---

[٢٦] أع ١٣، ٢٢؛ ١ ملوك ١٣، ١٤.

خارجاً، لا تطرحْني من أمام وجهك، وروحك القدوس ونعمة النبوّة التي وهبتني إيّاها لا تنــزعْها منّي. لا تنــزعْ منّي روحَك القدوس ومواهبه التي كانت فيَّ. هكذا يشرح الذهبيّ الفمّ ويقول: "إنّي أطلب هذه النعمة وحضور روحك كما تعود النحلة إلى الزهر بعد غياب الدخان". هذا لا يعارض الفكرة السابقة أنّ داوود لم يخسر كليّاً روح النبوءة بعد خطيئته وإنّما فعلاً خسره جزئياً. لأنّه إن هجر الروحُ القدس الإنسانَ كليّاً هلك لا محالة، وإنّما تنقصر نعمه عنّا عندما نعيق عمله فينا بخطايانا.

(١٢) امنحْني بهجة خلاصك، وبروح رئاسي اعضدْني

امنحْني يا ربّ السّلام الداخليّ، واطرحْ من قلبي عذاب الخطيئة، أعدْ إليَّ بهجة البرّ وانــزعْ عنّي قلق الشرّ. أعطِني سلام الضمير وفرحه وبهجة الخلاص التي كانت لي قبل إثمي. كيف يشعر الإنسان بفرح الخلاص؟ عندما يشعر أنّ إلهه الخاصّ هو المبرِّر وهو المخلِّص، عندما يشعر أنّ له دالّة، رغم ضعفه، أن يكون في صفوف المخلَّصين، أي الذين يعترف بهم الإله المخلِّص عبيداً له.

واعضدْني يا ربّ بروح رئاسيّ، بروح الاستقامة. اجعلْ روحك القدّوس يعطيني قوّة عيش الفضيلة، اجعلْه يهدّئ جيشان أهوائي ويهبني روح الاستقامة، ويمنحني قوّةً أسيطر بها على ميولي للخطيئة. هبْني رئاسة الروح على الجسد، أعطِني السيادة التي منحتنيها قبلاً، سيادة الإرادة على الرغبات.

(١٣) فأعلِّمُ الأثمةَ طرقَك، والكفرةُ إليك يرجعون

قد يكون هذا البيت نبوءة عن دخول الأمم الكفرة إلى الإيمان عن طريق انتشار الإنجيل. ولربّما هذا الكتاب الذي سيبقى من داوود سيكون فعلاً تعليماً للأثمة بترانيمه الرائعة وصلوات التوبة الحارّة التي فيه.

القدّيس أثناسيوس يقول عن لسان النبيّ داوود: "إذ قد محوتَ مآثمي وأطلْتَ عليَّ أناتك وسكبتَ فيضَ رحمتك و لم تنـــزعْ روحك القدّوس منّي وها قد منحتَني بهجة خلاصك، فإنّي سأعلِّم بالطبع الكفرةَ الإيمان والأثمةَ التوبة. لا بل إنّ غفرانك وعودتي ستكون فعلاً درساً بليغاً في التوبة، وسيقودان كثيرين إليها". هكذا يقول أيضاً إيسيخيوس: كما أنّ المريض يلجأ إلى دواء ما بثقة عندما يرى عليلاً مثله قد تناوله قبله وشفي، هكذا صارت توبة داوود درساً وحثّاً على توبتنا.

هكذا في أفاشين السّحر التي يتلوها الكاهن يقول الأفشين الثامن: "يا مَن وضعتَ لنا توبة داوود رسماً للتوبة...". إذن يصرخ داوود: سامحْني يا ربّ وأظهِرْ فيَّ عظم رحمتك وسأكون أنا درساً ومثالاً للتوبة وبرهاناً على محبّتك ورحمتك، برهانٌ يقود الخاطئين إلى أن يعودوا ويتوبوا لئلاّ يهلكوا. لهذا كانت صرخة بولس مثالاً قويّاً أنّ المسيح "جاء ليخلّص الخطأة الذين أنا أوّلهم". وهذا ما يعنيه بولس، أي إن كنتم لا تؤمنون أنّ المسيح يقبل الخطأة، فها إنّ مثالي يبرهن – على حدّ قوله – أنّه يسامح أكبر الخطأة الذين أنا أكبرهم والأوّل فيهم إذ قد اضطهدتُ قبلاً كنيسته.

(١٤) نجِّني من الدماء، يا الله إله خلاصي، فيبتهج لساني ببرّك

إذا أردنا أن نفهم النصّ بمعناه التاريخيّ، فالدّماء هنا، هي الدم المهدور ظلماً، دم أوريّا الذي قتله داوود. وكأنّ داوود يصلّي إلى الله أن ينجّيه من الوقوع ثانية بهذه الزّلة الرهيبة. تكرار اسم الله، "يا الله إله خلاصي"، يوضح شدّة تضرّعه. هنا يطلب داوود التائب من الله أن يعطيه القوّة لتمضية حياته الباقية في توبة بدون دماء. فحتّى التوبة ذاتها، هي من ناحية قرار وموقف شخصيَّين، لكن من ناحية أخرى تحقيقها هو بركة وهبة إلهيّتَين. فالذي يضمن توبتي هو إله خلاصي.

ويمكن فهم كلمة "دماء" بمعناها المجازي "شياطين". والشياطين يرمز لها بالدماء لأنّها سبب القتل وتفرح به وبالشرّ.

بالطبع القلب الذي ينجو من الدماء ومن الشرور عامّة ويخلص منها لا تشغله هموم ولا تقلقه مخاوف الشرور وأعمالها ونتائجها، وإنّما تملؤه مشاعر التسبيح ويروح يشدو بعظائم الله ورحمته وبرّه، أي بالتبرير، أي بالمسامحة والغفران الذي ناله. القدّيس كيرلّلس يرى بكلمة "برّ" هنا المسيحَ ذاته. فداؤود كما بنبوءة يبتهج بالمسيح الذي صار به التبرير لنا وصار هو تبرير الله لنا وبرّنا أمامه.

(١٥) يا ربّ افتحْ شفتَيَّ، فيخبر فمي بتسبحتك

لقد صَمَتَ فمي من ألم الخطيئة، لقد سدّت هذه الأخيرة فمي عن أناشيده المعتادة. فسامحْني يا ربّ وافتحْ شفتيَّ بغفرانك لتسبّحانك من جديد

كما كانتا. يا ربّ افتحْ لي أبواب التوبة لأعود إلى حياتي الأولى، إلى تسبيحك والتغنّي برحمتك.

(١٦) لأنّك لو آثرتَ الذبيحةَ لكنتُ الآن أعطي، لكنّك لا تسرّ بالمحرقات

هنا يتخطّى داوود كلّ الفاصل بين زمنه وزمن العهد الجديد، فيتجاوز الفرائض الناموسيّة كأنّه يعبد الله بالروح والحقّ[٢٧]. إنّ ذبيحتَه هي تسبحتُه وشكرُه وصلاته وتوبته، لا يشتري غفران الله بالذبائح لكن بالتوبة الصادقة أي بكره عميق للخطيئة. إنّك لا تبيع الغفران بذبيحة، فذبائح المحرقات ذاتها لا ترضيك، يقول النبيّ لله.

لقد كان عند اليهود عدّةُ أنواع من الذبائح كتقدمات للهيكل، فمنها ما كان يُذبح ويؤكل. أمّا أثمن الذبائح لله هي تلك التي كانت تقدَّم بكاملها لله، فكانت تُحرق كلّها ولا يؤخذ منها شيء البتّة. وحتّى هذه، أكرم الذبائح لا يُؤثرها الله وإنّما كما يتابع داوود في البيت اللاحق:

(١٧) فالذبيحة لله روح منسحق، القلب المنسحق والمتواضع لا يرذله الله

وما هو الروح المنسحق؟ إنّه قلبنا عندما ندينه ونحاكمه ويعترف فعلاً بذنبنا. الانسحاق يأتي من لوم الذات والوقوف أمام الله كمُحاكَمٍ منكسِر القلب. القدّيس باسيليوس الكبير يشرح ويقول: "انسحاق القلب هو طرد الأفكار البشريّة. فالمنسحق القلب هو مَن يعطي نفسه وعقله إلى التأمّل بالكلام الإلهيّ والذي يمنح ذهنه فرص الانشغال بالمعاني السامية والإلهيّة. هذا

[٢٧] يو ٤، ٢٣-٢٤.

يجعل، فعلاً، قلبه ذبيحة مرضيّة لدى الربّ وغير مرذولة منه. فمَن يحبّه الله، ويحسن إليه ويريده أن يعيش في جدّة الحياة والروح، يسحق فيه إنسانَه القديم. لهذا فالذبيحة لله هي الروح المنسحق، أي ينسحق روح العالم العامل فينا كلّ خطيئة لكي يتجدّد في أحشائنا روح مستقيم...".

القدّيس مرقس الناسك يقول: "بدون انسحاق قلب لا يمكننا التخلّص من خطايانا. وما يسحق القلب هو ضبط النوم والمعدة وعدم الكسل في الراحة". انسحاق القلب بكلام آخر هو الفقر بالروح. والفقير بالروح هو المتواضع، الذي إذا ما عمل خيراً لا يترفّع لأنّه يذكر خطاياه على الدوام وهي أمامه كلّ حين. على العكس، إنّ قساوةَ القلب هي من الكبرياء ومن حبّ الدنيويّات والمراءاة والكذب. لهذا يقول النبيّ: "يا بَني البشر لماذا أنتم ثقيلو القلوب، إلى متى تحبّون الباطل وتبتغون الكذب؟". هكذا يسمّي المغبوط أوغسطين دموع الصلاة، عرق القلب ودم النفس. مَن يَبْكي خطاياه هذا يقدّم الذبيحة الحقيقيّة لله.

(١٨) أصلحْ يا ربّ بمسرّتك صهيون، ولتُبْنَ أسوار أورشليم

أنتَ صالح يا ربّ، وشهوتي ليس فقط صفحَك عن مآثمي، وإنّما أن تنظر من السماء وتطّلع على الكرمة التي غرستها يمينُك وتصلحها، لأنّه لا يمكنها أن تنصلح إن لم ترضَ أنت عن ذلك وتسعَ أنت إليه. هنا يطلب داوود بإلحاح ولكن بانكسار، ويقول "ولتُبنَ" بدل "وابْنِ أسوار أورشليم". هكذا يشدّد على الطلب برجاء وليس بأمر. طبعاً أورشليم هي مدينة الله وشعبه، وأسوارها المبنيّة هي صحّة وقوّة كنيسته.

(١٩) حينئذ تسرّ بذبيحة البرّ قرباناً ومحرقات، حينئذ يقرّبون على مذابحك العجول

لقد تحقّق طلب داوود السابق وهذا الأخير، تحقّقا بالفعل عندما بنى الربّ كنيسته وأصلح أسوارها، وصار يُسرّ بذبيحة البرّ، أي بجسد ودم ابنه اللذَين يؤكلان فيقدِّسان المشتركين بهما. هذا هو القربان الحيّ والحمل الذبيح.

في هذا المزمور رأى كثير من الآباء القدّيسين تلميحات إلى المسيح وكنيسته، مثل كيرلّلس وإفسابيوس. فمسرّة الله هو المسيح، المخلّص. أمّا صهيون فهي الكنيسة. أسوار أورشليم هم معلّمو الكنيسة المستقيمو الرأي وأعمدتها وأساقفتها، أو أيضاً الملائكة السماويّون. وذبيحة العدل في كنيسة المسيح ليست ذبائح حيوانيّة وإنّما هي حياة المسيحيّين، أي الفضيلة. القربان والتقدمات تقابل عذابات القدّيسين والمعترفين. أمّا المحرقات فهي الشهداء الذين قرّبوا كلّ ذواتهم وكامل حياتهم في سبيل الإيمان. أيضاً قربانٌ في الكنيسة هو العفّة أو أي تضحية حياتيّة في مسلكيّتنا اليوميّة مهما كانت. أمّا المحرقات فهي الفضيلة الكاملة أي الحياة الرهبانيّة، (كما يشرح ثيوذوريتُس).

العجول هم المسيحيّون الذين يعملون الفضائل، هؤلاء يصيرون سمناءَ بدهن الروح القدس لأنّهم يناطحون الأهواء والشيطان يعرف إيمانهم، هؤلاء يقدمون نفوسَهم على المذبح السماويّ ذبائح تصير رائحة زكيّة، آمين.

صـــلاة فـــي الضـــيق

تأمّل في المزمور الثاني والستّين[٢٨]

لعلّه من أجمل الرسومات المسيحيّة القديمة الرمزيّة، هي صورة الأيائل المسرعة إلى نبع المياه. الغزال حيوان جميل وسريع، يحيا على قتل الأفاعي وأكلها. ولحم الأفعى ثقيل وقاسٍ وهذا ما يجعل الغزال يلتهب عطشاً في "أرض بريّة وعادمة الماء". فيروح يبحث عن ماء في الصحراء. وتتوق نفسه وجسده إلى الماء. والمسيحيّ تتوق نفسُه في العالم إلى ماء الحياة كما تتوق نفس الغزال إلى الماء في الصحراء[٢٩]. هذا الرسم هو تشبيه مسيحيّ قديم لعطش النفس إلى الله.

العبارة الشهيرة "يا ربّ خلقتنا متّجهين إليك ولن نرتاح إلاّ بك"، عبارة تدور حولها صلوات كثيرة. إنّها تعبير مختصر عن صرخات الإنسان بعبارات لا تُحصى ولا تُعَدّ. هذه هي المسرّة التي جلبها الله على الأرض: إنّه أروى عطش الإنسان إليه. لقد وَجدت البشريّةُ، كالابن الضّال، أباها

[٢٨] يُتلى هذا المزمور في صلاة السحر.

[٢٩] أنظر: المزمور ١٤٢، ٦.

الحنون، الذي يمكنها أن تتّكئ على صدره وترتمي في أحضانه وترمي عليه رجاءها.

ما يميّز العهد القديم عن الجديد، أنّ الأوّل كان معاهدة ناموسيّة، إذ بين الله والإنسان واجباتٌ. ولعلّه في ذهن الكثيرين كانت الفكرة الغالبة أنّ الذبيحة والأنفس الحيّة المقدّمة تشتري الرضى الإلهيّ وتمحو الخطايا الشخصيّة، وبالنهاية تسوّي العلاقة الناموسيّة بين الإنسان والله فتريح الضمير. وصار "الواجب" و"إتمامه" طابعَ العلاقة. بينما في العهد الجديد فإنّ الموهبة، أي الهبة الفريدة هي أنّنا نلنا "موهبة التبنّي" ولسنا بعدُ عبيداً. والتبنّي هذا لا يعني فقط أنّ الله تبنّانا، أي تعهّدنا، وإنّما بالأعمق أنّنا بتنا نشعر بالله الآب- "الأب" عبر ابنه "الابن". رُوِيَ هكذا عطش الإنسانيّة الباحثة عن أبيها السماويّ الحنون المعتني والراعي.

لكن من رجالات العهد القديم انفرد البعض منهم بميزة "القفزة الزمنيّة" من علاقة العهد القديم إلى هذه التي في العهد الجديد. قفزةٌ من الذبائح والناموس لشراء الرضى إلى علاقة المحبّة البنويّة والارتماء بأحضان الأب السماويّ كالطفل في حضن أبيه. وأكثر من الجميع امتاز بينهم داؤود النبيّ، لأنّه عاش في زمن العهد القديم حياةَ العلاقة التي للعهد الجديد.

عبارات داؤود النبيّ، التي هي من قلب هائم بالله ومتّكل عليه، تُعتبر أجمل الصلوات المسيحيّة على الإطلاق. لهذا نفهم سبب استخدام مزاميره

بشكل كثيف في صلواتنا، إن كان ذلك في الصلوات الجماعيّة في الكنيسة أو الفرديّة في المخدع الداخليّ.

قراءة المزامير رياضة روحيّة تساعد الإنسان أينما كان، إنّها صلاة حارّة. الرهبان يقرؤون كتاب المزامير كلّه مرّة في الأسبوع خلال صلوات السّحر والغروب. أضفْ إلى ذلك أن القوام الأساسيّ للصلوات اليوميّة كلّها مكوّن بأغلبه من هذه المزامير. المزامير هي صلوات تحرّك أقسى قلب وتدبّ الحياة في أي روح ميّتة بهموم الدنيا وشهواتها.

هذا المزمور، هو الثالث من مزامير السحر الستّة الرائعة. وسوف نتوقّف عنده قليلاً لنحاول أن نغوص إلى معانيه لعلّ ذلك يساعدنا على ترداده ليس لفظيّاً ولكن قلبيّاً وذهنيّاً أيضاً. "الأوامر الرسوليّة" والذهبيّ الفمّ وأثناسيوس الكبير، يوصون ألاّ يمرّ صباح دون أن نصلّي هذا المزمور. لقد دخل هذا المزمور في صلاة السَحَر منذ وقت مبكر في الكنيسة.

يتصدّر المزمورَ العنوانُ: "لداؤود وهو في بريّة اليهوديّة". نحن نعلم أنّ كتاب المزامير (١٥٠ مزموراً) يسمّى كتاب داؤود النبيّ، لكن مؤلِّفَ المزامير كلّها ليس داؤود فقط. يُسمّى هكذا مجازيّاً لأنّ داؤود هو كاتب أغلب مزاميره. وإنّ الإشارة إلى المكان، وبالتّالي الظرف الذي كان فيه داؤود حين أنشد هذه الصرخات القلبيّة، هي ملاحظة تستحقّ التوقّف عندها.

داؤود وُجد في البريّة هارباً فارّاً وملاحَقاً، نعرف من حياته أنّه فرّ مرّتَين مهدَّداً بالقتل، مرّة من الملك شاول قبل أن يصير ملكاً[٣٠]، ومرّة ثانية اضطرّ

---

[٣٠] ١ ملوك ٢٣، ٢٦.

بعد ملوكيّته أن يترك العرش لابنه أبشالوم ويفرّ إلى البريّة[٣١]. في أحد هذَين الظرفَين خرج هذا المزمور من قلب داؤود الملآن معاناة، ولكن بالوقت نفسه رجاءً بالله.

الغريب والرائع في هذا المزمور أنّه، بينما كان داؤود مضطهَداً وفي خطر كبير فهو لا يتأفّف على الله وحتّى بالبداية لا يلتفت إلى خطره لكنّه يشتاق إلى الهيكل من البريّة البعيدة عنه، أنّاتُ قلبه قد خرجت ذبيحةَ تسبيحٍ وليس طلباتٍ أرضيّة. تنهّداتُه من الأعماق كانت ملتهبةً بالعشق، وتطلب لقاء الله. زفراتُه كانت تعابيرَ ثقة واتّكال على الله. لذلك فهو مملوء ثقة بالله وكلّه رجاء ولا خوف عنده على مصيره أو من أعدائه "فالله هو إلهه"!

القدّيس أثناسيوس الكبير يقول إنّ هذه الصلاة ليست فقط لظرف كظرف داؤود وليست لحالة كحالته عندما كان مضطهَداً، وإنّما صلاة كلّ قلب عطشان إلى الله وإلى نعمته في كلّ ظروف الحياة. كلّما فرضت علينا الظروف أن نكون بعيدين عن الصلاة والعبادة الجماعيّة، يمكننا أن نرفع هذه الصلاة. كلّما وُجدنا في ضيق واضطهاد يمكننا أن نصلي هذه الزفرات الحيّة لترفعنا من الخوف واليأس إلى حلاوة الرجاء وتعطينا "سلامَه" الذي تركه ويتركه لنا.

(١) يا الله إلهي، إليك أبتكر

مَن منّا، عندما يقع في ضيق أو مرض أو شدّة، يصرخ: "يا الله"؟ نحن- مؤمني هذا الدهر- أناس مصابون بـــ "العقلانيّة المفرطة" (Rationalism)،

[٣١] ٢ ملوك ١٥، ١٧.

التي تعني بكلمة أخرى قلّة الإيمان. عندما يتعرّض الواحد منّا لموقف، فوراً قبل أن يفكّر بالله يفكّر "بحكمته" أو بأساليب للخروج من ضيقته، أو يفكّر ويصرخ: "يا فلان"! ولكن الله غائب وبعيد عن حياتنا. هل نشعر أنّ الله هو ملجأنا وخاصّة عندما تنعدم الحلول وتفشل كلّ الوسائط! هل نصرخ "يا الله" أم نحكّم العقل ونتوسّط الوسائط؟ إنّ الاتّكال على الله لا يعني إلغاء العقل وإنّما حكمة الاعتراف بقدرة الله الفائقة على العقل. نحن نحكّم العقل، وهذا جيّد، لكنّنا نؤمن قليلاً أنّ كلّ شيء من الله ولأجله، وهذا أمر سيّئ. أحكِّم عقلي ليس لأستغني عن الله ولكن لأنّه هو أوصاني أن أمدّ أنا يدي أوّلاً لينتشلني هو من ضيقي، أنْ أبرهن بالسعي الجادّ أنّني راغب بالخروج من محنتي، مهما كانت، وأنّ ثقتي هي به و ليست بحكمتي!

وهنا داؤود يضيف كلمته "إلهي" وكأنّه يذكّر اللهَ بخاصّته؛ بابنه وعبده. وكما تقول التراتيل "ارحمْنا يا ربّ ارحمْنا لأنّنا عليك اتّكلنا، نحن شعبك وكلّنا صنع يدَيك وباسمك ندعى". أتترك خاصّتك وشعبك المتّكل عليك؟

هنا ياء المتكلّم في "إلهي" فيها ليس فقط تذكير لله بعبده ولكن تكريس العبد نفسه وذاته لإلهه. "أنتَ إلهنا وآخر سواك لا نعرف". أنت خاصّتي بمعنى أنّك "حصّتي" و"نصيبي" وغايتي وآخر سواك لا يستهويني. يا الله "إلهي" هي عبارة تخصّص والتحام بالله كالطفل بأبيه. فلكلّ إنسان أب ولكلّ إنسان إله، يمكن للشهوة أو للمجد الفارغ أو أيّ شيء آخر أن يصير آلهة، أمّا أنا "فالله" هو إلهي. وتخصّصي في غنم مرعاه اقتنيتُه من حياتي المناسبة ومن مسلكيّتي. لأنّه كما يقول ذلك الإعلان الرهيب في خدمة القدّاس الإلهيّ: "أهِّلْنا أيّها السيّد أن ندعوك أباً غير مدانين". إنّ التخصّص لله والشعور به إلهاً لي، هو

دينونة عندما لا ترافقه الحياة المطلوبة. التخصّص يعني ترك علاقات كثيرة وانتخاب نلك العلاقات التي تجعلني من خاصيّة الله وبالتالي تجعل الله خاصّتي وحصّتي ومقصدي وغايتي. هكذا كلّ مصلّي مع داؤود يصرخ يا الله إلهي، أي يا بغيتي ومقصدي، يكفيني رضاك ولو خسرت العالم كلّه. يكفيني أن "أقف قدّامك وتراني" ولو نسيَني جميع الناس.

"إليك أبتكر..."؛ حبُّ الله وعشقُه لم يتركا داؤود يشبع من نومه. "لقد نام، لكن قلبه مستيقظ". مَن يحب شيئاً بشدّة، يدفعه هذا الحبّ من الصباح الباكر أن يترك الفراش ويقصد المطلوب. كثيراً ما نبكّر في القيام ونتأخّر بالسهر، ولكن من أجل مَن؟ إلى الله بكّر داؤود النبيّ بالقيام، لقد ملأه حبُّه واستهواه، ولم يعد الشبع من النوم مقبولاً... هكذا أيضاً كلّ محبّ لله. أشعياء نفسه كانت تبكّر روحه من الليل إلى الله للتأمّل بأحكامه، لأنّ أوامره نور على الأرض[٣٢].

- **عطشتْ إليك نفسي، بكم نوع تاق إليك جسدي**

"عطشتْ إليك نفسي" كالغزال إلى الماء. إنّها تعابير حبّ عميقة، العطش يعبّر عن لهيبٍ داخليّ. والحشا هو مركز الإنسان العميق، عليه ينحني وفيه يتألّم. تشعر الأم ابنَها كتلة من حشاها أو قطعة من كبدها. فالعطش أشدّ الأحاسيس قوّة. لم تشتقْ نفسُ داؤود وحسب بل أيضاً عطشتْ وتريد أن تطفئ ذلك اللهيب. هكذا المصلّي الحقيقيّ يعطش إلى الصلاة. الصلاة ليست واجباً. لكي نعرف ما إذا كنّا نصلّي أم لا، علينا أن نسال أنفسنا هل

[٣٢] أش ٢٦، ٩.

الصلاة لدينا "واجب" أم "حاجة"، هل نصلّي لأنّنا "عطاش" ونحتاج للصلاة كما للماء؟

عندما تشتدّ بنا الأحاسيس النفسيّة كثيراً ما تنعكس على الجسد. فمنظر مفرح أو مفزع، مفاجأة ما... كلّها تنعكس على الجسد بعينه. ولهذا يصرخ داؤود، ليس نفسي فقط قد عطشت إليك ولكن أيضاً "تاق إليك جسدي". حبّك سرى حتّى في عظمي ولحمي. جسدي عينه تاق إليك وراح هو أيضاً يطلبك. لا توجد تعابير أشدّ. كلّ الكيان يطلبك يا الله إلهي. هذه عبارات داؤود النبيّ[٣٣]: "تاقت نفسي إلى خلاصك وكلامك انتظرتُ"، و"كم أحببتُ شريعتك، اليوم كلّه هي لهجي".

هذا ما يعلّمنا إيّاه قدّيسونا والآباء أن يكون الله لهجنا طول النهار وفاتحة يومنا، أي أن يكون مركز اهتمامنا وهمّنا الأوّل. بالحقيقة إنّها ذبيحة مرضيّة لله أن يقدّم الإنسان باكورة يومه له، ولكنّها بالوقت ذاته ضمانة وقوّة وانطلاقة واعية للإنسان عينه. هكذا نحن نقدّم للصلاة أفضل لحظات اليوم وليس الوقت المقتول منه. وهذا ما يؤكّده نسّاك كبار مثل مرقس النّاسك ونيلوس المتوحّد. القدّيس باسيليوس الكبير يقول إنّه علينا أن نخصّص وقت السحر للصلاة "كيما تكون الحركات الأولى للنفس نحو الله". وهنا داؤود يعبّر عن شدّة توقه لله بقوله "بكم نوع تاق...". لقد ذاب شوقاً إلى الله ولا يعرف كيف يصف ذلك أو أن يحدّده. هذا المضطهَد، الفار، المتعب، العطشان المختبئ والجائع... عجيب! لأنّ نفسه تعطش ليس إلى الماء، وجسده لا يطلب شيئاً آخر، بل يطلب اللهَ والله وحده.

---

[٣٣] مز ١١٨، ٨١.

لكن التعبير الأعمق عن عطش داؤود، وعطش كلّ مؤمن، توضحه الآية التالية: "في أرض بريّة وغير مسلوكة وعادمة الماء". هكذا كان داؤود ونحن أيضاً، نحيا في عالم، الله غريب فيه. لهذا غدا هذا العالم "بريّة" قاحلة جرداء. العالم يعجّ بالناس والناس تزحم بعضها البعض لكنّهم كالخيالات لا يلتفت الواحد إلى الآخر، ولا يشعر أحدنا أن بقربه آخر. أكثر المجتمعات ازدحاماً هي في حقيقتها "وحشة". والفرادة- للأسف- هي طابع الحياة في أكثر المجتمعات تحضّراً. بينما تكثر الشركات تزداد الأنانيّة وتتفتّت الصداقات. وليس بعد من ماء حياة في هذه المجتمعات... دنيانا تقدِّم بحاراً من الملذّات لكن الإنسان لا يشبع من مثل هذا الماء المالح.

(٢) هكذا ظهرتُ لك في المقدس، لكي أعاين قوّتك ومجدك

"هكذا"! نعم هنا يقفز داؤود ويتخطّى قروناً؛ يقفز فوراً إلى العهد الجديد وهو بعيد. هو مُبعَد عن أورشليم وهيكل العبادة، ومع ذلك يحضر أمام الله بالإيمان والرغبة. كان اليهود يعاينون الله فقط في تابوت العهد في الخيمة داخل الهيكل. فإنْ فَصَل الزمانُ والمكانُ داؤود عن الخيمة فلن يفصله عن الله. إنّه يحضر فكريّاً وذهنيّاً أمام الله. إنّها "العبادة الناطقة والعقليّة". إن لم يقدر أن يحضر بالجسد إلى المعبد والهيكل المقدّس "المقدِس"، فإنّ روحه تطير من مكان غربته ونفيه وتحضر بالإيمان والشوق إلى داخل الخيمة وتعاين فعلاً مجد الله. ويروى أنّه عندما فرّ الملك داؤود هارباً، حمل أتباعه من اللاويّين والكهنة الخيمة وداخلها تابوت العهد (مجد الله) وتبعوه، لكنّه أمرهم أن

يعودوا بالتابوت إلى المعبد، لكي لا يخاطروا بالخيمة معه في نفيه وغربته[٣٤]، إلى هذه الخيمة تطير روح داؤود على أجنحة الصلاة القويّة والإيمان الحيّ والشوق الحارّ.

تجاه ضعف العالم وهوانه وفراغه تنتصب قوّة الله ويعلو مجده. الأرض البريّة القاحلة جرداء لا فرح فيها ولا ماء ولا حمدٌ. لكن المقدِس الذي تطير إليه نفوسنا ملآن قوّة ومجداً. "الربّ عزّي وثباتي وملجأي وقوّتي".

المجد والقوّة الإلهيّان يعطيان لداؤود الحزين المنفي والملاحَق الفرح والرجاء. قوّة الله تطرد من القلب كلّ خوف.

(٣) لأنّ رحمتك أثمن من الحيوانات، شفتيَّ تسبّحانك

كان على اليهوديّ كلّما دخل المعبد أن يدخل بشيء، بحيوان يقدّمه ويشتري بدمه الغفران أو رضى الله... لكن داؤود اكتشف ما أعلنه بولس بعده بقوّة: أنّ رحمةَ الله لا تُشترى بدم عجول وثيران. رحمة الله أغلى بكثير. تلك التقدمات هي رموز. ولو قدّم الإنسانُ كلّ ما يملك، كلّ أيامه وكلّ حياته، فإنّ ثمن ذلك لا يعادل شيئاً من قيمة رحمة الله. رحمة الله دائماً مجانيّة. تقدماتنا ليست ثمناً معادلاً للخلاص ولكنّها "ما نقدر عليه" وما يطلبه الله منّا. لأنّ الله لا يطلب ثمناً لكنّه يطلب "القلب": "يا بنيَّ أعطني قلبك"، والذبيحة بماديّاتها برهان على حركة القلب. ولكن عندما يقدَّم القلبُ دون ذبيحة، فإنّ التقدمة تمّتْ لأنّ "الذبيحة لله روح منسحق والقلب المتخشّع المتواضع لا يرذله الله". لذا: "شفتيَّ تسبحانك"، ورحمة السلام هي ذبيحة التسبيح.

---

[٣٤] ٢ ملوك ١٥، ٢٥.

(٤) هكذا أباركُك في حياتي، وباسمك أرفعُ يدَيَّ

هكذا أباركك .. كيف؟ بدون ذبائح بشفاه مسبِّحة، من جهة، ولهذا يتابع: باسمك أرفع يدي بالصلاة الحارّة. هكذا أباركك: "في حياتي"، أي طيلة حياتي: "أسبّح الربّ في حياتي وأرتّل لإلهي ما دمتُ موجوداً"، يردّد ذلك أيضاً النبيّ داؤود في مزمور الغروب. حياتي كلّها ستكون تسبحة وزمن حياتي هو للصلاة والتسبيح . إلاّ أنّ القدّيس كيرلّلس يشير إلى أنّ كلمة في حياتي لا تشير إلى الفترة فقط وإنّما إلى الطريقة. فالحياة الطاهرة الملائمة هي التسبحة الحقيقيّة. لن نسبح بالذبائح ولن نذبح الخراف ولكن سنموت نحن كلّ يوم من أجل البرّ و"هكذا" نسبّحه.

"وباسمك أرفع يديّ": هذه العادات والحركات الخارجيّة في الصلاة كانت من العصور القديمة. فالحركات الخارجيّة تساعد كثيراً على الصلاة. لهذا يقول النبيّ في مكان آخر "إليك بسطتُ يديَّ".

أغلبنا يظنّ أنّ اشتراك الجسد بالعبادة، مثل السجدات ورفع الأيادي والوقوف والركوع، هي حركات للمتقدِّمين. لكن الحقيقة هي عكس ذلك. فالقدّيسون والمتقدّمون ليسوا بحاجة لهذه المساعدات والوسائط. القدّيس يستطيع أن يصلّي في الطبيعة، أمّا أنا فأحتاج فعلاً للمعبد والأيقونسطاس والشموع والبخور؛ ومع كلّ هذا أبقى مشتَّتاً، أقرأ ولا أصلّي. القدّيس وهو يحاورك يصلّي، يعمل ويصلّي. أمّا أنا المبتدئ فعليَّ أن أنفرد وأن الجأ إلى ظروف مساعِدة. القدّيس والمتقدّم روحيّاً ليس بحاجة للسجدة بقدر ما أحتاجها أنا. كذلك الأمر مع أمور العبادة الخارجيّة كلّها، من معبد وبخور

ورفع الأيادي. هذه الحركات الخارجيّة تنعكس على القلب الداخليّ. وهذه كلّها تتمّ باسم الربّ. أي للربّ ومن أجله وفي السعي إليه. واسم الله في الكتاب يعني شخصه وحضوره.

(٥) فتمتلئ نفسي كما من شحم ودسم، وبشفاه الابتهاج يسبّحكَ فمي

"كلام الربّ عذب ونقيّ" . إنّ مَن يرفع يدَيه ويدعو باسم الربّ لا بدّ من أن يسكب الربُّ عليه تعزياته. لهذا كلام الربّ أطيب من العسل في حلق النبيّ داؤود. وكما يشبع الجسد حين ينعم بالشحم والدسم هكذا تمتلئ النفسُ راحةً وتعزيةً من نعمة في الصلاة. فيروح الفم يسبّح ليس كواجب ولا بتعب، لكن بفرح. لهذا يقول النبيّ: "يا ربّ افتح شفتيَّ فيخبر فمي بتسبحتك". لقد بات تسبيح الله أعذب عمل وألذّ شغل للنفس. كثيراً ما نقف للصلاة بأيدٍ متهاونة وبوقفة متردّدة فلا نذوق طعم الصلاة وتغدو هذه ثقيلة علينا، يدفعنا إليها الواجب. وتبقى الوقفة أشبه بصحراء جدباء. لكن حين نرفع أيدينا "ذبيحة تسبيح" وبحرارة فإنّ ترداد الصلاة يصير عذباً. لهذا كثيرون ممّن يردّدون "صلاة يسوع" نراهم مرّات كثيرة يردّدون هذه الصلاة بعبارة: "أيّها الاسم العذب...". يصير اسم يسوع عذباً في قلوبهم. كالعسل في الحلق. وتقطع الصلاة مرحلة الواجب وتصل إلى القلب الذي يتلذّذها ويطلبها فتجري فيه ويحيا بها. وممّا في القلب يفيض اللسان وينطق الفمّ.

(٦) إن ذكرتُك على مفرشي، هذذتُ بك في الأسحار

في صلاة النوم الصغرى، نطلب في الأفشين الأخير: "امنحْنا يا الله عقلاً ساهراً وفكراً طاهراً وقلباً مستيقظاً ونوماً خفيفاً... وأنهضنا في وقت الصلاة ثابتين في وصاياك. هبْ لنا أقوال تماجيدك طول الليل..."، بالواقع إن نام الواحد منّا على ذكرى أمر ما يحبّه أو يزعجه... يؤثّر فيه، فينهض قبل الأوان وهو يتذكّر هذا الأمر عينه، ينام عليه وهذا الأمر يوقظه عند الصباح، ولربّما قبل الأوان.

كلام الربّ عذب جدّاً في قلب النبيّ، لهذا فإنّ ذَكَره على مفرشه قبيل نومه يلهج به طوال الليل. لهذا يقول أنا نائم لكن قلبي مستيقظ. ونحن نعرف أنّ نسّاكاً متقدّمين يردّدون أثناء نومهم أيضاً صلاة يسوع. واسم الربّ وذكره لذيذ لدرجة أنّه يوقظ النبيّ، يرقد على ذكره ويستيقظ سحراً في ذكراه.

حقّاً إنّه لأمر رائع أن نرقد مع الصلاة بسلامها وأن توقظنا بفرحها. بدل أن نرقد بصعوبة على قلقنا وأن نستيقظ ونحن نهدس بمصاعبنا ومخاوفنا. سأذكرك يا ربّ على مفرشي وتعالَ إليَّ لأهذّ بك أوّلاً بالأسحار.

(٧) لأنّك صرتَ لي عوناً، وبظلّ جناحَيك أستتر

كلّ إنسان يتّكل على أمر ما، أو على إنسان آخر. أمّا داؤود فيعرف جيّداً أنّ الله هو عونه. الجوانح رمز لعناية الله وحنانه. هذه الصورة استخدمها المسيح نفسه عندما بكى على أورشليم: "كم من مرّة أردتُ أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحَيها". والمزامير تردّد هذه الصورة

مرّات كثيرة، فالجناح هو الستر المحبّ. الله معتنٍ ومدبّر بمعنى أنّه محبّ جدّاً وحنون. لهذا على تابوت العهد وُضع ملاكا شاروبيم وبأجنحتهما يغطّيان التابوت رمزاً إلى عناية الله وستره. الإيمان بالله وبعنايته يعطي فوراً دفئاً وسلاماً وطمأنينة ولوكنّا وسط أقسى الشدائد.

(٨) التصقتْ نفسي وراءك، وإيّاي عضدتْ يمينُك

كما الطفل، شاعراً بضعفه، يمسك بأهداب أمه، يتبعها من خلفها ويتمسّك بها، فيشعر حينئذ بطمأنينة وفرح وثقة. هكذا تلتصق نفسنا في الصلاة بالله. والله يمدّ يمينه ويعضدنا فعلاً في كلّ ضيق. لقد التصقتْ نفس النبيّ بالله، ولم يُخيِّب الله رجاءه ومدَّ يده اليمنى وساعِدَه الرفيع وقوته وعضدَ ابنَه الضعيف في الضّيق. جميلة هي تعابير النبيّ، يعرضُ صوراً فيها الخبرة والرجاء. رمى على الله توكّله والله لم يكن بخيلاً عليه.

(٩) أمّا الذين يطلبون نفسي باطلاً، فسيدخلون إلى أسافل الأرض

والآن بعد مناجاة الله ورفع الصلاة إليه ورمي الرجاء عليه، يلتفتُ النبيّ داؤود، وقد امتلأت نفسه شحماً ودسماً وثقة ورجاء، ولم يعد فيه للخوف مكان، يلتفت إلى مشاكله، إلى أعدائه وهم أشدّ منه بكثير، هو الفارّ بدون سلاح وهم يتبعونه بالعسكر والسلاح. لكن الربَّ سترُه، وبالتالي كلّه ثقة، ليس بمقياس العقل، ولكن بعين الإيمان، أنّ أعداءه سوف يدخلون إلى أسافل الأرض. كيف؟ لا يعرف المنطق ذلك ولا يمكن أن يفسره لكن الإيمان بالله يؤكّده.

هكذا النبي، لأنّه كان بارّاً من جهة حياته وليس هناك ما يعذّب ضميرَه كان له الإيمان أنّهم عبثاً سيطلبون نفسه، لن يجدوا شيئاً ولن يحقّقوا مآربهم الشرّيرة، لأنّ الربّ يحفظ بارّه. الحياة البارّة تعطي الدالة على الله والثقة به.

(١٠) وسيُدفعون إلى أيدي السيوف، ويكونون أطعمة للثعالب

وإن لم يكن داؤود مسلّحاً وليس من عسكر بجانبه، إلاّ أنّ الله سوف يدبّر الأمور بحيث أنّ أعداءه سيموتون أشنع ميتة وينهزمون أردأ هزيمة. سوف يدفعون، كيف لا يعرف لكنّه واثق، سيدفعون للقتل بحدّ السيف وستكون نهايتهم أبشع نهاية. فبعد أن يقتلوا لن يجمع أحد جثثهم. وسوف تأتي الثعالب وتنهش لحومهم. هذه الصورة هي صورة لأبشع هزيمة، حيث تبقى الجثث بعد المعركة في الساحة ولا يعود أحد من المنهزمين ليجمع جثث رفقائه. سوف تكون نهايتهم نصيباً للثعالب.

(١١) أمّا الملك فيسَرّ بالله ويُمتدَح كلّ مَن يحلف باسمه، لأنّه قد سُدَّتْ أفواه المتكلّمين بالظلم

هكذا يختم داؤود نشيده وصلاته في هذه الضيقة، بمشاعر الغلبة والثقة بمعونة الربّ. إنّ ذلك هو نصيب الخطأة الذين يطلبون نفسه عبثاً. فإنّه هو (الملك) سوف يسرّ بالله وسوف يفرج له الله كربته ويخلّصه من أخطاره. بالطبع لن يتخلّى الله عن الملك الحقيقيّ ، عن عبده داؤود الفارّ، وسوف يُرفع شأن الداعين باسمه ويكرمونه. سوف تنصلح الأمور ويعود ترتيبها إلى قوامه الحقيقيّ . سوف ينهزم الظَلَمةُ وسوف تنتصب راية الحقّ عالية ويدبّ السّلام

في قلوب الأبرار وأتباعِ الملك الحقيقيّ . الله لا يتركنا في ضيق إلاّ وقد دبّر لنا مخرجه، يقول القدّيس اسحق السرياني. في كلّ شدّة علينا أن نؤمن أنّ الله سيدبّر الحلّ المناسب لأنفسنا بعد امتحاننا هذا.

نعم سيفرح الملك وأتباعه وكلّ مَن يحلف باسمه، ليس لأنّ أعداءه قد ضربوا أو انهزموا، إذ يظهر جليّاً هنا مَن هم أعداء داؤود ولماذا سيفرح هو بهزيمة أعدائه! إنّ أعداءه هم أعداء الله والمجدِّفون على اسمه القدّوس. وهذا ما تفسّره العبارة: "لأنّه قد سُدَّتْ أفواه المتكلّمين بالظلم". فرَحُ داؤود هو بانتصاب الحقّ وارتفاع اسم الربّ عالياً، واستعادة كرامة ملكه الحقيقيّ . الأمر هنا يختصّ بنصرة الحقّ أكثر من المصلحة أو المصير الشخصيَّين.

نعم الصلاة الحارّة الملآنة رجاء واتّكالاً على الله هي وحدها تعطينا الثقة أنّه في كلّ شدّة سوف تسبّح أفواه المؤمنين وتمتلئ كما من شحم ودسم، بينما أفواه الظالمين والأعداء الروحيّين والجسدانيّين سوف تصمت، آمين.

مـــصــــاعـــد الـــقـــلـــب

تأمّل في المزمور الثالث والثمانين[٣٥]

"مغبوط الرجل الذي نصرْتَه من عندك،
مصاعد في قلبه وضع في وادي البكاء، في المكان الذي وضعه"

عن أيّة مصاعد روحيّة يكلّمنا النبيّ، والتي حين يضعها الإنسان في قلبه تغدو حياته مغبوطة؟

يقدّم عصرنا الحالي، بمنجزاته وحضاراته الماديّة وبالتقدّم العلميّ الحاصل، للإنسان إمكانات رائعة، أن يرى مثلاً العالم كلّه وهو في مكانه، أن يسمع بكلّ ما يجري ويحصل، أن يراقب كلّ "موضة" وكلّ عادة دارجة وأن يتابع أيّ حدث!

وسائل الإعلام، الشّاشة والصحف والمواصلات والاتصالات، تقدّم للإنسان الاحتكاكَ والاتصال ليس مع محيطه الخارجيّ القريب فقط، ولكن

[٣٥] يُتلى هذا المزمور في صلاة الساعة التاسعة.

أيضاً مع كلّ العالم البعيد عنه. حين تطغى هذه الإمكانيّات الرائعة على إنسان اليوم، للأسف، تعود عليه بنتائج لا يرغب بها لنفسه.

هناك حالةٌ يعاني منها بعض الناس اليوم وهي الخضوع لهيمنة الحضارة الحديثة، ليس كمستفيدين وإنّما كعبيد معجَبين تابعين وليس كقادة، بالنهاية كمستخدَمين وليس كمستخدِمين. أولى هذه النتائج السلبيّة وأخطرها هي أنّ كلّ ما سبق يُخرِج الإنسانَ إلى الخارج ويجعله يحيا في وضع من "الإنفلاش" الخارجيّ يفقد فيه سيطرته على داخله. يحيا "مجروراً" وراء كلّ نبأ أو موضة أو حدث...!

هذا ما تعبّر عنه كوميديّة فرنسيّة ظريفة: وفحواها باختصار، أنّ أحد الأساتذة اعتاد كلّ صباح أن يتتبّع الأخبار العالميّة على شاشة التلفزيون الصغيرة قبل الذهاب إلى مدرسته. بينما كان ذات صباح يتتبّع أنباء العالم كلّه، ذلك العالم البعيد عنه، الذي هو غير فاعل فيه ولا مؤثّر عليه، ترامت إليه في تلك اللحظات أصوات مزعجة من الخارج، ولما اتّجه إلى النافذة ليغلقها رأى مظاهرة...! ولشدّة فضوله سأل عنها، فإذا بها مظاهرة للأساتذة يطالبون بحقوقهم. نعم، يحيا إنسان اليوم خارج ذاته، يناقش في كلّ الأمور التي، في أغلبها، لا تعنيه، وإنّما تلهيه، ويسهو حتّى عن حقوقه، وبالنهاية عن حقّ ذاته به، وحتّى أيضاً عن واجباته. الكوميديّة متطرّفة، إلاّ أنّها تعطي صورة عن التشتّت الذي يحياه إنسان اليوم، وإن كانت أيضاً بالفعل لا تقصد عدم المبالاة بالعالم الخارجيّ فإنّها تشير إلى الخروج غير الواعي عن عالمنا الداخليّ.

هذا "الإنفلاش" الخارجيّ قطَعَ صلةَ الإنسان بأخيه الإنسان. فراح كلّ فرد يشعر بذاته أنّه نقطة في بحر غير متماسك، نقطة غريبة بين نقاط أخرى. خرج الإنسانُ عن ذاته ولم يلتقِ بآخر قربه فبقي غريباً بين غرباء. "الوحشة الاجتماعيّة"حالة تحمل تناقضاً رهيباً وتخلق ردّة فعل عكسيّة. اليوم أكثر من أيّ وقت سابق، يكثر الميل والبحث عن أساليب وأوقات وطرق للغوص الداخليّ. الشيء الذي استغلّته الأديان السريّة الشرقيّة، التي تعتمد على هذه الرياضات الغريبة. تتصاعد الرغبة، عند الشباب خاصّة، بتعاطي مخدّرات أو ممارسات أو أساليب شتّى يحاولون بها أن يغوصوا إلى داخلهم الذي خرجوا منه، فتغرّبوا عن ذواتهم وارتموا في وحدة الوحشة القاسيّة في مجتمعات يحيا فيها كلّ إنسان فرداً مستهلِكاً أو مستهلَكاً بدون قريب. كلّ يوم تزداد الشركات والأعمال المشتركة التي تربطنا بالمصلحة ويسود فيها الحذر والدهاء، بينما لا يوجد فيها تعاون قلبيّ صادق يعطي للعمل وللحياة وجههما الصحيح، ألا وهو المحبّة.

إلاّ أنّ الكنيسة هي فردوس صداقات وواحة محبّة في صحارى المجتمعات المفكّكة. في الكنيسة، يعود الواحد إلى ذاته فعلاً. والعودة إلى الذات، التي نتعلّمها ونسمع بها، تختلف بالكليّة عن الغوص الداخليّ السابق. الغوص الداخليّ هو إنطوائيّة معاكسة للإنفلاش الخارجيّ، بينما العودة إلى الذات هي الفنّ النسكيّ المسيحيّ، وهي الحلّ الحقيقيّ لأتعاب ذلك الإنفلاش الخارجيّ المعاصر. إذا كان الغوص الداخليّ ردّةَ فعلٍ ورفضاً للعالم الخارجيّ وانعزالاً عنه ولقاءً فرديّاً مع الذّات في ظلمة القلب، فإنّ العودة إلى الذّات بالممارسة المسيحيّة ليست إنطوائيّةً ولا انعزالاً ولا انفراداً بالذّات البتّة، لكنّها لقاء في

القلب مع "مَن" لا تسعه السموات. العودة إلى الذّات ليست رفضاً للمحيط الخارجيّ المفكك، الذي يفشل بتقديم أيّ لقاء مع أي قريب، وليست استرجاعاً أنانيّاً للذّات التي ضاعت، وإنّما هي التحام داخليّ في القلب مع مَن هو أقرب إلينا منّا إلى أنفسنا؛ مع المسيح!

العودة إلى الذّات وإلى القلب هي الالتقاء بالمسيح في أصدق لحظة من لحظات الصداقة، إنّها الانفتاح الحقيقيّ للذّات على أقرب المقرَّبين إليها. لهذا مَن يصل إلى هذا القريب لا يمكن لضوضاء العلم أن تفصله عنه، فيقدر أن يعود لذاته وهو في العالم. سرّ اللقاء بالمسيح ليس رفضَ العالم لكن حمْل المسيح في القلب لننقله إلى العالم.

والعودة إلى الذّات كما يشبّهها تقليدنا الكتابيّ ليست غوصاً وإنّما "مصاعد" أو "مراقي" أو سلّم. القلب ليس ظلمة داخليّة ولكنّه سلّم منصوبة من الحياة اليوميّة الأرضيّة إلى السماء. لهذا يقول المرنِّم طوبى للرجل، ومغبوط ذلك الإنسان الذي وضع في قلبه ليس التشتّتات الخارجيّة وإنّما المصاعد الروحيّة، مصاعدَ في وادي البكاء، وادي العودة إلى الذات وإلى القلب، وادي اللقاء بدموع مع "القريب"-"الغريب" الذي مملكته ليست من هذا العالم. العودة إلى الذّات هي إطلالة على العالم المفتوح الرّحب الواسع. إنّها دخول، وكما يقول المسيح، إلى ملكوت الله الذي فينا: "ملكوت الله في داخلكم"[٣٦]. إنّها تلمّسٌ وتذوّق للسعادة الحقيقيّة التي دخلنا إلى عالمها من يوم المعموديّة، لكنّنا نحيا، وللأسف، خارجها في عالم يلهينا عن أنفسنا وعن الساكن فينا. العودة إلى الذّات هي قطاف لثمار المعموديّة التي زُرعت فينا. إنّها لقاء مع

[٣٦] لو ١٧، ٢١.

الثالوث الأقدس في حرم القلب الداخليّ، إنّها صعود على تلك المصاعد الروحيّة، إنّها الغبطة، غبطة اللقاء إلى درجة الدموع.

لكن ما هي تلك الدرجات الصاعدة، وما هي تلك المصاعد؟ لسنا بحاجة اليوم إلى بحث طويل، وإنّما يكفينا تلخيص تلك الخبرات الطويلة للرجال الذين نالوا تلك الطوبى. هذه الدرجات كثيرة. ونحن نصعدها واحدة فواحدة. ليس كقفزات وإنّما بالتدرّج شيئاً فشيئاً.

أولى تلك المصاعد هو "الصبر". لأنّ الصبر هو الأساس الثابت الراسخ الذي عليه سيقوم ذلك الصعود الطويل. فبالصبر نتغلّب على كلّ تردّد وكلّ صعوبة تعترضنا أثناء صعودنا. التّراخي أمام كلّ محاولة يعني فشلاً، من الانطلاقة الأولى. وهذا الصبر هو "صخرة الإيمان". فالإيمان العميق بالربّ الذي سنلاقيه ويثبّتنا والآتي إلينا هو الصخرة التي تقوم عليها تلك السلّم السماويّة. الصبر هو سرّ نجاح مصاعدنا وهو البداية الأساسيّة للنهاية المنشودة، المحبّة. إذن الصبر هو الشرط الأساسيّ للقاء الله المحبّة، الربّ يسوع.

يأتي "الصمت" بعد الصبر. الصمت الروحيّ الصحيح. ليس الانقطاع عن الكلام وإنّما ألاّ نقول كلاماً بطّالاً، أي الانقطاع عن المضرّ من الكلام وغير اللازم. بالصمت، يقول الآباء القدّيسون، نقطع نصف خطايانا وزلاّتنا. ألاّ نتكلّم إن لم تكن هناك حاجة. وعندما نتكلّم أن يكون كلامنا من الروح القدس بنّاءً. فليقسْ كلّ منّا كلماته وليحصِ كم منها كان البنّاء أو على

الأقل لازماً، وكم منها كان مضرّاً أو فضوليّاً... لهذا يقول الكتاب: "الزلّة من السطح ولا الزلّة من اللّسان". أَلَيس من اللسان نخرج إلى التشتّت الخارجيّ؟ التقليد النسكيّ يوضح أنّ عدم إخراج الأهواء هو نصف شفائها. فأن نغضب داخليّاً هذا طبيعي، لكن إخراج اللّعنات أو الكلمات أو التعابير هو انكسار أمام الهوى وتنمية له. بينما الصمت هو حدّ له وإضعاف، وهو نصف الشفاء. والربّ قال لنا: "من كلماتك تُدان ومن كلماتك تتبرّر"[٣٧]. مَن هو المغبوط الذي سيصل إلى درجة القدّيس سلوان الآثوسيّ؟ إلى تلك الدرجة التي لا يتكلّم فيها الإنسان إلاّ "عندما ينطق الروح فيه" ويصمت الإنسان! هذا الإنسان سيقول مع بولس الرسول "لستُ أنا أحيا بل المسيح يحيا فيَّ". لهذا يُسمّى بولس "فم يسوع المسيح"؛ لأنّه كما قال عنه فم الذهب: "عندما يتكلّم بولس ينطق المسيح بفمه".

وثالث تلك المصاعد هي "الصلاة"؛ الصلاة الحقيقيّة؛ الصلاة من كلّ القلب. الصلاة المتواضعة. لأنّه بالصلاة يتمّ الالتحام واللّقاء في القلب مع المسيح الربّ. واللّقاء هناك مباشر. الصلاة هي أقوى سلاح لنا في حياتنا وضدّ أعدائنا. إنّها مقياس دخولنا إلى القلب. لهذا مَن يملك الصلاة ويلاقي الربّ قد عاد إلى قلبه ولو كان وسط ضجيج كلّ العالم. الصلاة تعني أنْ نحيا مع المسيح بحيث يحيا هو فينا. أنْ نحيا ولا نفكّر إلاّ بالمسيح. أنْ نصلّي من كلّ القلب، يعني أنّنا دخلنا فعلاً إلى القلب، ويعني عودة حقيقيّة إلى الذّات.

---

[٣٧] متى ١٢، ٣٧.

الموضوع ليس غوصاً بقدر ما هو صفاء من أجل هذا اللّقاء. التشتّت الخارجيّ المعاصر يعكّر ويصعّب هذا اللّقاء ويشوّش كلمات الصلاة.

العالم بمشاكله ليس حتماً تلهيةً أو تشويشاً، عندما نواجهه مسيحيّاً كمسؤوليّة، نستطيع أن نحمله معنا إلى القلب إلى المسيح. فالمشكلة ليست بالعالم وإنّما بموقف المواجهة له. إن حملناه بمسؤوليّة الرسول صار لنا، كما يجب، قائداً إلى المسيح وإلى المحبّة، أمّا إنْ واجهناه كضعفاء أو خرجنا إلى حناياه البعيدة قبل الأوان سيكسرنا ويخرجنا إلى ضوضائه حيث لن نصادف المسيح ولن نعود به إلى ذواتنا، لأنّنا سنعيش فيه كأنّنا منه. وأعمى لا يقود أعمى.

أمّا الدرجة الرابعة، فهي ما يسميّه الآباء فنّ "اليقظة"، وهي السهر على الذّات، أي على الأفكار، وعلى ما يدخل إلى مخدعنا الداخليّ ويخرج منه. إنّها مراقبة تمنع دخول ضوضاء العالم والتافه منه إلى المقدس الداخليّ؛ هي حارس أمين واعٍ يطرد "شهوات العالم" التي تطرد من داخلنا "محبّة الناس". إنّها منظّم على باب القلب يسمح فقط للأفكار الصالحة ولمشاعر التوبة والتواضع بالدخول. إنّها بكلام آخر حصن ودرع لعالمنا الداخليّ ضدّ هجمات الأهواء والميول والظروف الخارجيّة المضرّة، وضدّ "النّبال الشرّيرة المحماة الثائرة علينا بغشّ".

السهر الداخليّ واليقظة، هما نور مسلَّط على القلب. هذا السهر يمارس عمليّاً بالفحص المستمرّ للذّات وباللجوء إلى الاعتراف والتوبة. تنظيم الحياة حول هذا السرّ هو ختم على نجاح مسيرتنا الصاعدة على تلك السلم

السماويّة التي وضعناها في قلبنا يوم اعتمدنا. ممارسة هذه الحركة العمليّة لليقظة والسهر هو ضمانة أكيدة لصحّة العودة إلى الذات وسلامتها، طريق أكيدة إلى القلب وإلى تلك المراقي والمصاعد الإلهيّة، إلى الربّ الواقف خلف الباب يقرع. فطوبى للإنسان الذي وضع مصاعد في قلبه في وادي البكاء، آمين.

الاتّـــكـــال عـــلى اللـــه

تأمّل في المزمور التسعين[٣٨]

"الساكن في عون العليّ، في ستر إله السماء يسكن"

نقرأ في صلاة النوم الكبرى ستّة مزامير قبل ترتيل "معنا هو الله". والثلاثة الأخيرة منها مختارة من مزامير الاتّكال على الله. فالمزمور (٢٤) يبدأ بـــ"يا ربّ إليك رفعتُ نفسي، إلهي عليك توكلتُ فلا أخزى إلى الأبد". والمزمور (٣٠) يُفتتح بالآية "عليك يا ربّ توكلتُ فلا أخزى إلى الأبد، بعدلك نجِّني وأنقذْني". وأخيراً المزمور (٩٠) يبتدئ بـــ"الساكن في عون العليّ، في ستر إله السماء يسكن". تتردّد في هذه المزامير أجمل صرخات الاتّكال على الله والثقة به.

لعلّ أهمّ صفة من صفات الله، في ضمير الإنسان عموماً، هي سيادته. أي أنّه في موضع السيّد الذي نستطيع نحن العبيد أن نتّكل عليه."الاتّكال على

٣٨ يُتلى هذا المزمور في صلاة النوم الكبرى.

البشر باطل" تقول المزامير. يحتاج الإنسان للإنسان ويعتمد عليه. لكن المتَّكَل الحقيقيّ والملجأ الأمين والأقدر هو الله! يتصارع الإنسان في سبيل وجوده وتحسينه مع مخاطر الحياة وظروفها ومسؤوليّاتها، ولطالما يشعر مرّات عديدة أنّه عاجز عن تحقيق أحلامه، ولربّما أيضاً حتّى أهمّ حاجاته! لذلك فهو يحتاج إلى معتمَد يستطيع الاستناد إليه في ضيقه وعجزه، فهو بحاجة لِمَن يثق به وقادر على التعويض له عن عجزه البشريّ.

تمتلئ صلواتنا، والمزامير منها خاصّة، بآيات الاتّكال على الله. فالله هو الملجأ والصخرة والخلاص والستر، ومَن يتّكل عليه لا يخزى إلى الأبد. "على الربّ توكّلتُ فكيف تقولون لنفسي اهربي إلى الجبال؟" لكن هناك شرطان أساسيّان للاتّكال على الله، فهناك اتّكال على الله خاطئ. لقد استخدم الشيطان إحدى آيات هذا المزمور (٩٠، ١١) ليجرّب المسيح ويوقعه في اتّكال خاطئ، حين طلب منه أن يرمي ذاته من جدار الهيكل ويتّكل على الله الذي يقول في المزامير: "لأنّه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كلّ طرقك، على الأيدي يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك"! لكن يسوع رفض هكذا اتّكال على الله، واعتبره بالعكس تجريباً لله وليس اتّكالاً عليه.

يسوع يتّكل على الله، ويصلّي تلك الصلاة الحارّة على الصليب "إلهي إلهي لماذا تركتني"، والتي غالباً ما نسيء فهمها، فنظنّ أنّ يسوع "يعاتب الآب" على هجرانه للابن في مثل هذه اللحظة التي كان عليه أن يكون أقرب فيها! الحقيقة أنّ هذا المزمور المسيانيّ هو من أجمل مزامير الاتّكال على الله!

حيث أنّه يشدّد كتتمّة للآية السابقة "عليك اتّكل آباؤنا فنجّيتهم، إليك صرخوا فنجوا، عليك اتّكلوا فلم يخزوا... عليك ألقيتُ من الرحم من بطن أمّي أنت إلهي"[٣٩].

ليس كلّ اتّكال على الله إذن صحيحاً! وبرهان ذلك المثالان السابقان المتناقضان بين يسوع والشيطان.

الشرط الأوّل للاتّكال على الله هو أن نؤمن برحمة الله وقوّته. إنّ أغلب المسيحيّين والناس عموماً لا يشكّون في قدرة الله، لأنّها أهمّ صفة من صفات الله "القوّة". لكن ليس لدى الجميع شعور أكيد برحمة الله وعنايته. فلا يشكّ أحد أنّ الله خالق. ولكن لا يشعر الجميع بعناية الله في العالم فعلاً. لذلك نراهم يميلون يوم الضّيق إلى الاعتماد والاتّكال على الذّات أو على المقتنيات أو على الناس... ولا يشكّل الله في مثل هذه اللحظات حلاً أبداً. مَن منّا يؤمن أنّه عندما يواجه أمراً غير ممكن لديه يمكن لله فعلاً أن يساعد فيه؟ إذا كنّا نتّكل على الله بالأمور المستطاعة فهذا ليس ثقة حقيقيّة بالله. الثقة الحقيقيّة تظهر تماماً عندما نطلب من الله ما هو غير مستطاع لدينا. يبدأ عمل الله عندما تنتهي مقدراتنا. وهنا يَمتحِن الاتّكالُ على الله إيمانَنا الفعليّ به.

لكن كي نضع اتّكالنا على الله، عندما نعجز أمام بعض الأمور، علينا أن نكون واثقين أنّ طلبنا هو موافق لمشيئته. هذا ما تمّمه يسوع عندما طلب من الآب "إن أمكن فلتعرضْ عنّي هذه الكأس"، ثم أضاف "ولكن لا تكنْ مشيئتي بل مشيئتك". نتّكل على الله يعني، أنّه عندما نعجز تجاه حاجة ما

[٣٩] مز ٢١، ١-١١.

نطلبها من الله ولكن بالإيمان، نعرف أنّه إذا كانت للخير وبحسب إرادته- فهو قادر أن يتمّمها لنا، وإذا كانت ليست لخيرنا، فالأفضل ألاّ يحقّقها لنا. إنّ إيماننا أنّ الله قادر على تتميم أيّ شيء، ولكنّه بالوقت ذاته رحوم، فهو لا يحقّق لنا إلاّ ما هو لخيرنا- بحسب إرادته. لأنّ محبّته لا يمكنها أن تكون إلاّ عناية ، وعنايةً حقيقيّة.

والشرط الثاني للاتّكال على الله هو أن نعمل نحن الآن ويحقّق هو الغد. غالباً ما نتّكل على الله بطريقة خاطئة. فحين نعجز مثلاً أمام صعوبة في الحياة "نتركها لله"، أي "نرميها في ملعبه"، ونقف نحن عادمي الحراك، وكأنّ على الله أن يعمل عنّا! الاتّكال على الله يعني تماماً أن نعمل نحن حتّى حين نعجز ونقدّم ضعفنا، وهو كلّ ما نستطيع. وإذا كان ذلك غير كافٍ أمام تلك الصعوبة فإنّنا نؤمن أنّه عندما نقدّم جهدنا اليوم وغير الكافي فإنّ الله يؤمّن لنا الغد. الاتّكال على الله لا يعني ترك الأمور لله (وحده). الاتّكال على الله يعني الثّقة به وبعنايته وعدم القلق واليأس. إذ عندما نواجه صعوبة تفوق طاقاتنا، نقدّم طاقاتنا دون قنوط مؤمنين أنّ الله سوف يتمّم إرادته بمساعدتنا وتحقيق كلّ خير عندما نتّكل عليه ونستدعيه لنجدتنا. "أؤمن يا سيّد، فأعِنْ ضعف إيماني"!

أتّكلُ على الله يعني أنّني أقدّم أنا الآن ويقدّم الله الغد! "هم اتّكلوا على الفرس والمركبات، أمّا نحن فباسم الهنا ندعو". نتّكل على الله فلا نخشى

صعوبات ولا أزمات، نعمل إرادته غير هيّابين ومؤمنين أنّ "صلاحه عظيم ومدّخر للذين يتّقونه".

"تشجّعوا ولتقوَ قلوبكم يا جميع المتوكّلين على الربّ"، آمين.

إلهـــي الخـــالـــق

تأمّل في المزمور المئة وثلاثة[٤٠]

"أيّها الربّ إلهي لقد عظمتَ جدّاً"

أرفع أنواع الصلاة هي تسابيح التمجيد، إنّها فوق تضرّعات الاستغفار والطلبات. وهنا يرفع المرنّم (داؤود)، من قلب معترف بالجميل وبالإعجاب، يرفع صرخات التسبيح والشكر لإله يتمجّد في أعماله الصالحة وفي هذه الخليقة التي تُعلن كلّ لحظة وفي كلّ شيء جماله وصلاحه. التأمّل بالخليقة يرفعنا بقلب مفعم بالشكران إلى الله الخالق، فنرفع تسابيح التمجيد.

يتتبّع هذا المزمور الطويل تسلسلاً ما في جولته على الخليقة كلّها. ومن الواضح أنّه يجول بعينَيه عليها بحسب ترتيب الخلق في سفر التكوين ذاته[٤١]. فنجده:

---

[٤٠] يُتلى هذا المزمور في بداية صلاة الغروب اليوميّة.

[٤١] تك ١، ١-٣٥.

١. في الآيات (١-٣) يتأمّل النور ويقابلها (تك ١، ٣) وهو **عمل اليوم الأوّل**.

٢. في الآيات (٢-٣) يتأمّل في خلق السموات وهي **أعمال اليوم الثاني** (تك١، ١-٨).

٣. في الآيات (٥-١٨) يتأمّل في تكوين الأرض ونباتاها وخيراها وطيورها وتقابلها (تك١، ٩-١٣) وهي **عمل اليوم الثالث**.

٤. في الآيات (١٩-٢٣) يتأمّل في الشمس والقمر وتبادل الليل والنهار والأوقات والأزمنة وتقابلها **أعمال اليوم الرابع**، ثمّ تسبحة وتمجيد الآية ٢٤.

٥. في الآيات (٢٥-٣٠) يتأمّل في البحر وعالمه وما فيه ويقابلها (تك ١، ٢٠-٢٣) وهي **أعمال اليوم الخامس**.

٦. في الآيات (٣١-٣٥) يتأمّل في الإنسان الذي يسبح الله لجلاله ويقابلها (تك ١، ٢٦-٣١) وهي **أعمال اليوم السادس**.

هكذا يدور المصلّي بناظره حول كلّ عناصر الخليقة كمَن يتدرّج على آيات التكوين ويسبّح الله الخالق.

لا شكّ أنّ الصور والكلمات التي يستخدمها المرنّم عن الخليقة والخالق هي صور مأخوذة بالأساس من كتاب التكوين، كما ويلاحَظ فيها تشابهٌ مع سفر أيوب (ربّما أخذ هذا السفر من المصدر ذاته، أي التكوين)، ولكن أيضاً من الثقافة العالميّة والوثنيّة المحيطة بالعالم اليهوديّ آنذاك.

مقارنة صغيرة مع سفر أيّوب نلاحظ تشابهاً في الآيات:

المزمور ١٠٣	سفر أيّوب	الموضوع
١-٣	٩، ٨	عرش الله في السماء
٦-٩	٣٨، ٨-١١	فصل السماء عن الأرض
٢٨-٣٠	١٢، ١٠	الله ضابط الحياة
٢١ و٢٧	٣٨، ٣٩-٤١	الله يطعم الحيوانات
٣٢	٩، ٥ و٢٦، ١١	الزلازل واضطراب الأرض
١٣-١٤	٣٨، ٢٧	الأمطار
١١	٣٩، ٥-٨	الوحوش ومساكنها
٢٦	٤١، ٢٣-٢٤	التنين الذي يلعب في البحر

وهذا التشابه وارد على صعيد القاموس اللغويّ والمعاني أيضاً[٤٢].

أمّا عن وجه الشبه بينه وبين الأناشيد لإله الشمس (Ηλιος)، الإله الأشهر في الشرق الأوسط ومصر، فهناك نشيد للإله الشمس يشابهه تماماً في نقاط عديدة لهذا المزمور[٤٣].

على أنّ الفرق الكبير هو في جوهر المعاني. حيث الله في المزمور هو الخالق والمتعالي على خليقته ومن خارجها. أمّا في تلك الأناشيد فعناصر الطبيعة (كما هي واردة في المزمور: الشمس – المطر- ...) تتألّه. وهذا هو الفرق الحقيقيّ بين الوثنيّة والكتاب المقدّس، ليس في تصوّر الخليقة وجمالها

---

٤٢ أنظر: G. Von Rad, *Theolgie des Alten testament*, I, München, 1969 (6), p. 153. Καϊμάκη, Δημητρίου, *Ψαλώ τω Θεώ μου*, Θεσσαλονίκη, 1996, σ. 83-84.

٤٣ أنظر: F. Michaeli, *Texte de la Bible et de l'Ancien Orient*, CAB 13, Neûchatel, 1961, p. 100.

إنّما في تصوّر الله الخالق فوقها أو منها، قبلها أو معها. الأمر طبيعيّ في استخدام الكتاب أو المرنّم للغة العالم، لكن دائماً بمعانٍ وكشوف جديدة، وهنا في أنّ الله هو الخالق وهو مَن أوجد الخليقة وليس منها وهو قبلها.

يتشابه هذا المزمور (١٠٣) بسابقه تماماً (١٠٢)، ويعود لداؤود النبيّ. يتميّز بنظرته البانوراميّة للخليقة كلّها. إنّه يحوّل قصّة الخلق من سفر التكوين إلى شعرٍ وتسبحة في سفر المزامير. إنّه تسبحة تمجيد وشكران.

يُتلى هذا المزمور في بداية صلاة الغروب، ويُتلى دَرَجاً وقراءةً في الغروب اليوميّ، فيما يرتَّل القسم الأخير من – "تفتح يدك فيمتلئ الكلّ خيراً"[٤٤] – في السهرانيّات. ويتصدّر هذا المزمور مجموعة المزامير الأخيرة التي تُختم بــ "هلّلوليا". سنعتمد هنا الترجمة الواردة في كتاب السواعي الكبير المستخدَم في الخدم الليتورجيّة.

(١) باركي يا نفسي الربّ، أيّها الربّ إلهي لقد عظمتَ جدّاً

"باركي يا نفسي الربّ": بهذه العبارة يبدأ المرنّم وسوف يُنهي المزمور بها. يخاطب المرنّم أعماقه (نفسه) ويدعو ذاته لرفع التسبيح لله الخالق. إنّ كلمة بارك، عندما تُعاد لله تعني إهداءِ البركات والعناية، وعندما تُعاد للإنسان تعني رفع التسبيح والشكر على البركات المعطاة لنا.

كلمة نفس لها معانٍ عديدة، وهنا تعني أعماق النفس، والعودة إلى الذات. كما شجّعنا السيّد عندما نصلّي أن "ندخل إلى مخدعنا" داخلنا.

[٤٤] ٢٨، ٣٥.

"العظمة" هي الصفات الأساسيّة في الله عند الإنسان الشرقيّ، الذي يرى الله ملكاً، لكن ليس كالأمم، بل ملك العدل والرحمة وهذه عظمته. وهنا يستخدم المرنّم كلمتَي "الربّ والإله": "يهوه وإلوهيم" فهو السيّد وهو الله. ولكن إذا كان الله "عظيماً جدّاً" فهذا لا يمنع برفعته أن يكون إلهي في ضعفي! فعظمة الله لا تجعل الإنسان يشعر بحقارته بمقدار ما تجعله يسبّح الله على محبّته لأنّه يتبنّانا في ضعتنا. في الآيات اللاحقة سيشرح المرنّم كيف استنتج عظمة الله، من خليقته العظيمة. لا يمكننا أن نعرف الله بجوهره ولكنّنا نعرف عنه الكثير من أعماله، الله في جوهره غيرُ مدرك لكنّه معروف من خليقته وعنايته وأعماله الصالحة. لذلك نجد المرنّم يتعجّب من جمال وعظمة الخليقة، لا ليمدح الخليقة وحسب بل ليسبّح عظمة الخالق وهذا هو الاستنتاج الطبيعيّ للإنسان العاقل، أنّه يقرأ في عظمة الخليقة عظمة خالقها، فيعبد الله ويشكره على استخدام الخليقة.

- **الاعترافَ وعظمَ الجلال لبستَ**

الاعتراف هنا يعني الإقرار بإحسان الله وأنّه مستحقّ كلّ شكر وتمجيد. أمّا عظمة الجلال فهي صورة الخالق من هذه الخليقة العظيمة. هنا، كما سبق أيضاً، يستخدم الأفعال في زمنها الماضي، فيقول لبسْتَ وعَظُمتَ. دالاً بذلك على زمن التكوين. لذلك يأتي شكر المرنّم وتسبيحه اعترافاً بمجد وجلال الله القديم، فنحن "نعترف بالإحسان" ونشكره بالتسبيح. كما أنّ رداء الملك مميّز، ويفرّقه عن باقي الحشم والخدام. هكذا هو رداء الله الملكيّ، إنّه عظمته وجلاله منذ لحظة التكوين. فالله مميّز بلباسه الخاصّ، وهو رداء الخالق، الذي

لبسه يوم خلق ولا يستطيع سواه أن يرتديه. ليس رداء الله أقمشةً نعرفه منها، بل رداؤه: العظمة والمحبّة المبرهنة في خلقه للعالم لخدمتنا.

(٢) أنتَ المتسربل النور كالثوب

هنا ينتقل المرنّم إلى زمن الحاضر في اسم الفاعل "المتسربل"، ليعطي لهذه الصفة ديمومة واستمراريّة. لقد تعظّم الله عندما خلق، ولكن هنا يجري الكلام عن حضرته في التاريخ كنور للعالم، ولأنّ عنايته مستمرّة على الدوام ... "أبي يعمل حتّى الآن"[٤٥]، نعم عناية الله دائمة.

النور في الكتاب المقدّس يدلّ على حضرة الله وفعله[٤٦]. "فالنور جاء إلى العالم والظلمة لم تقبله".

الله "وحده إله عدم الموت ساكناً في نورٍ لا يدنى منه". النور في الحسّ البشريّ مدلول على كلّ ما هو جميل ونقيّ ويعطي حياةً. النور هنا يعبّر عن عظمة الله وعن عنايته وجماله بالوقت ذاته[٤٧]. النور يضفي على الله البهاء والصفاء من جهة ولكن القربى ورغبة البشر برؤيته من جهة أخرى. هكذا نرنّم للربّ يسوع ساعة غروب شمس العالم: "يا نوراً بهيّاً". فالله يلتحف بالنور لأنّه منظور ولكن غير مدرك. هكذا يمكننا أن نرى النور ونشعر به ولكن غير ممكن أن نحدّق به وندركه. وأولى أعمال الله في الخلق كانت

---

[٤٥] يو ٥، ١٧.

[٤٦] أش ٦٠، ١٩؛ يو ١، ٤؛ ١ تيم ٦، ١٦.

[٤٧] أنظر: P. Humbert, “Le thème vétérotestamentaire de la lumière”, RTP 16, 1966, p. 1-6.

إدخال النور في اليوم الأوّل. يستخدم فيما يلي المرنّم والمصلّي الخليقة بكلّ عناصرها كمرآة يرى فيها وجه الله، أي شخصه المحبّ والسخيّ والعظيم.

- **الباسط السماء كالخيمة**

(٣) المسقّف بالمياه علاليه

خلق اللهُ السموات في اليوم الثاني. وتبدو السماء بلغة الكتاب المقدّس بصورتَين: الأولى كخيمة يبسطها الله أو كبلاط سماويّ قائم في الهواء. لهذا يستخدم المرنّمُ الصورتَين هنا. لكن صورة خلق السماء كـــ "بسط الخيمة" تدلّ على عظمة الله الذي خلق كلّ هذه العظمة بكلّ هذه السهولة، كالبدويّ الذي يبسط خيمة حيث يحلّ. والسموات هي خيمة الله ومسكنه. هذه السماء هي كالستار الذي يحجب قوّة نور الله عن عيوننا، فهو منظور غير مدرك مكشوف ومحتجب بالوقت ذاته.

أمّا الصورة الثانية (المسقّف بالمياه علاليه) فهي مأخوذة من سفر التكوين مباشرة: "فعمل الله الجلد (السماء) وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجَلَدَ سماءً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً ثانياً"[٤٨]. هنا تظهر عظمة الله الذي يبني في السماء مسكنه. ومسكنه هذا ليس في السماء وحسب بل في أعالي السموات حيث لا يصل الإنسان. وهذه الصورة فيها من الغرابة بمقدار يبرهن العظمة. فالسقف في فكر الإنسان يوضع ليحمي من مياه الأمطار. بينما الله له من القدرة الفائقة أن يجمع المياه ويجعل منها سقفاً للسماء التي يسكن فيها. فالمياه عنصر لا يقدر

---

[٤٨] تك ١، ٧.

الإنسان على ضبطه. تضبطه هنا يد الله وتستخدمه بحكمة. هنا عظمة الله في عناصر الخليقة وقدرته على الخلق فيها.

- **الجاعلُ السحاب مركبة له، الماشي على أجنحة الرياح**

السحاب في الكتاب المقدّس هو مكان إعلان مجد الله وحضوره. فالسحاب قاد الشعب في البريّة، والسحاب ظلّل خيمة العهد عند تدشين معبد سليمان، السحاب ظلّل يسوع في التجلّي، وعلى السحاب صعد إلى السموات. وعلى السحاب سيعود المسيح في مجيئه الثاني. فالسحاب يُعلن حضرة الله ويخفيه بالآن ذاته. لأنّ الله موجود غير مدرَك. يعلن السحاب تعالي الله وقدرته ورفعته فوق السموات.

لليهوديّ، النظريّة الكونيّة تؤمن أنّ السموات على طبقات. ففوق الأرض هناك قبّة السماء ومنها ينحدر المطر. لكن فوقها هناك سماء لمسكن الله[٤٩]، والسحاب أشبه بمركبة ترفعه إلى سمائه. البرق والرعد هي عناصر تعبّر عن أصوات وسرعة ملائكته. فكلّ شيء في الكون هو في خدمة الله الملك.

يسير الله على أجنحة الرياح فحركته سريعة جدّاً في كلّ مكان، ولا نعرف أين تذهب وأين تعود "الريح تهبّ حيث تشاء وتسمع صوتها لكنّك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب"[٥٠]. مركبة من سحاب وأجنحة من رياح هي عناصر تفوق العالم البشريّ في معرفته وقدراته عظمةً وسرعةً، وهذه إحدى علائم عظمة الله الخالق ومجده.

---

[٤٩] أنظر: M. Κωνσταντίνου, *Το κοσμοείδωλο της Π. Δ.*, ΕΕΘΣ, τ. 28, Θεσσαλονίκη 1985.

[٥٠] يو ٣، ٨.

هكذا بعد أن تصوّر المرنّم عظمة الله من كون النور ثوبه، والسماء خيمة سكناه، والريح والسحاب مركبته، ينتقل إلى التأمّل بعظمته من العالم غير المنظور.

(٤) الصانع ملائكته أرياحاً، وخدّامه لهيب نار

الربّ الخالق هو سيّد الخليقة كلّها، المنظورة كالسماء والغيوم والأرض والرياح، ولكن أيضاً هو سيّد الخليقة غير الهيوليّة وغير المنظورة كالملائكة وكاللهيب. لقد صنع ملائكته سريعين في الحركة والخدمة يأمرهم فكالريح يهبّون للعمل وسريعاً يصلون إلى هدفهم في الخدمة وهم غيرُ منظورين كالريح السريعة. وخدمه هؤلاء – الملائكة- حارّون بالروح كاللهيب، متهيّأون دوماً لتنفيذ كلامه لا يقف بوجههم شيء كاللّهيب الذي يتناول كلّ شيء ولا يمنعه شيء!

سفر التكوين لا يعلّمنا عن كيفيّة خلق الملائكة، ما نعرفه بالأساس هو من سفر أيّوب[٥١]. وهنا في آية المزمور يتّضح أنّ الملائكة هم خليقة الله، كما يؤكّد ذلك بولس في رسالته إلى العبرانيّين مطالباً برفع العبادة للابن يسوع فقط الذي هو فوق الملائكة بمقدار ما يفوق الخالق الخليقة[٥٢] والملائكة هم كائنات: "لاهيوليّة" كما نذكرهم في صلواتنا (άϋλα)، أي أنّهم غيرُ منظورين، لهم مادّة لكن ليست ظاهرة ماديّاً بشكل كثيف كمادّتنا ومواد عالمنا. لهذا نسمّيهم "غير المتجسّمين"، أي لهم مادّة لكنّها ليست كالجسم، بل غير منظورة. لهذا يقارن المرنّمُ الملائكةَ مع الريح. وإنّهم "خدّام" كلهيب

---

[٥١] ٣٨، ٧.

[٥٢] عب ١، ٧.

النار. ولم يقل كالنار (مادّة) بل كلهيب النار دالاً على المعنى الروحيّ أي الحرارة في الخدمة والإخلاص والطهارة والقداسة والنقاوة والإخلاص. هكذا عاين موسى ملاك الله في لهيب علّيقة ملتهبة غير محترقة[٥٣].

(٥) المؤسِّس الأرض على استيثاقها، فلا تتزعزع إلى دهر الداهرين

يعود المرنّم بنظره من جولته في السماء نحو الأرض، فينظر إلى عظمة هذا الجزء من الخليقة، التي تسير بانتظام عبر الزمان ولا يؤثّر فيها عبث الإنسان. في مفهوم اليهوديّ من الشرق الأدنى، ترتكز الأرض على قواعد أساساها في أعماق المياه! فهي هكذا بأساسات ثابتة لا تتزعزع. إلاّ أنّ العديد من الآباء القدّيسين لا ينظرون إلى النظام الطبيعيّ على أنّه أتوماتيكيّ الحركة، أي ينظّم ذاته بذاته. إنّ ثبات الخليقة وانتظام قوانين عملها لا يقوم بالأساس على قوانين فيزيائيّة وحسب، هذه القوانين تفسّر كيفيّة ثبات النظام، لكن السبب بحدّ ذاته هو "كلمة الله". أساسات الكون هي كلمة الله، وإرادته بأن يكون. فإن كانت أساسات الأرض عميقة مثبّتة في غور البحار والأنهار، كما يقول المزمور: "للربّ الأرض بكمالها المسكونة وكلّ الساكنين فيها، لأنّه على البحار أسّسها وعلى الأنهار ثبّتها"[٥٤].

إلاّ أنّ علّة كلّ ذلك وسبب ثباته هي إرادة الله (الذهبيّ الفمّ). فلا يهمّنا أين هي أساسات الأرض، لذلك يعلن المرنّم تسبيحه للربّ الذي يؤسّس الأرض فلا تتزعزع. أساسات الأرض هي إذن عناية الله ومحبّته للبشر وإرادته أن يضع هذه الخليقة في خدمة الإنسان. على أنّ المرنّم يستخدم هنا زمنيّاً

---

[٥٣] خر ٣، ٢.

[٥٤] ٢٣، ١- ٢.

كلمة "دهر الداهرين"، فهذا الزمن هو زمن عالمنا حتّى يوم القيامة العامّة. حين سيعلن عن تجديد كونيّ تزول فيه السماء والأرض في يوم مجيء الربّ العظيم[٥٥].

(٦) رداؤه اللجّة كالثوب، على الجبال تقف المياه

تحيط المياه والمحيطات باليابسة كرداء حولها، لكن عالم المياه الكبيرة مهيب ومجهول! فاللجّة هي البقعة التي لا يجوز لإنسان عبورها والاجتياز فيها. إلاّ أنّ الله يسيطر على هذه العوالم المهيبة ويطويها كرداء يلتحفه بخفّة وسهولة! لكن هذه اللّجج المهيبة بأمواجها المخيفة الهائجة والجبارة هي تحت سيطرة يد الله المعتنية، لذلك وضع الله الجبال والشواطئ العالية لتتصدّى لهذه القوّة الفتّاكة ويضع لها حدّاً تقف عنده.

(٧) من انتهارك تهرب، ومن صوت رعدك تجزع

"وقال الله لتجتمع المياهُ تحت السماء إلى مكانٍ واحد ولتظهر اليابسة، وكان ذلك"[٥٦]. هذه كلمات سفر التكوين التي يتأمّل فيها مرنّم المزامير، ويمجّد الله على عزّته، فهو يأمر هذا العالم المجهول والقويّ، عالم اللّجج والمحيطات، يجمعها بكلمة ويُظهر الأرض. أمرُ الربّ أقوى من مهابة أيّ عنصر من عناصر الخليقة مهما كان مخيفاً للإنسان. صوت الربّ كالرعد يزلزل الجبال وتجزع منه المياه، وعندما صار صوته تكوّنت المسكونة: "أرعد الربّ من السموات والعليّ أطلق صوته... فظهرت أعماق المياه وانكشفت

---

[٥٥] متى ٢٤، ٣٥؛ ٢ بط ٣، ١٠.

[٥٦] تك ١، ٩.

أسس المسكونة من رجزك يا ربّ من نسمة ريح أنفك" يقول المزمور[٥٧]. "صوت الربّ على المياه، إله المجد أرعد... صوت الربّ بالقوّة صوت الربّ بالجلال"،[٥٨] "رأتْكَ المياه فجزعت". تذكّرنا هذه الصور والكلمات بترانيم عيد الظهور الإلهيّ والغطاس، حيث تعلن الترانيم سيطرة الله وعنايته على أرهب قوى الطبيعة، المياه.

(٨) ترتفع الجبال وتنخفض البقاع، إلى الموضع الذي أسّستَه لها

كما يضع الربّ للمياه الجبّارة حدودها، كذلك يحدّد للسهول المنخفضة والجبال المرتفعة أيضاً مواقعها، كلّها بأمر الله صُنعتْ، قال فكانتْ، أمَرَ فخُلقتْ. فبعد أن سبّح المرنّمُ اللهَ الخالق على جمعه للمياه إلى أماكنها، وحسب سفر التكوين حينها ظهرت اليابسة[٥٩] وهذه اليابسة تشكّلتْ بأمره جبالاً مرتفعة ووِدياناً منخفضة. كلّ شيء في الخليقة بأمر الله ومعرفته وإرادته.

(٩) جعلتَ لها حدّاً فلا تتعدّاه، ولا ترجع فتغطّي وجه الأرض

هكذا فصل الله في الخلق بين المياه واليابسة، فالمجد لسيّد اللّجج والسّحب، لمن شكّل اليابسة بوديانها وجبالها، ولكن العظمة أيضاً لله الذي نظّم الحدّ بين البرّ والبحر، بين المياه واليابسة. لقد وضع الله نظاماً طبيعيّاً للخليقة لا تتعدّاه وتنتظم عليه. وهذا النظام يذهل الإنسان بترتيبه وحكمته.

---

[٥٧] ١٧، ١٤.

[٥٨] مز ٢٨، ٣.

[٥٩] ١، ٩.

يحكم الله العالم بهذا النظام ويسوسه بدقّة. بالطبع إنّ الطوفان الذي يذكره الكتاب لا يشكّل لحظة خطأ في هذا النظام أو هروب من يد الله الضابطة للكلّ، إنّما يشكل مظهر طاعة لأمر خاصّ منه تأديبيّ آنذاك. الله هو واضع النظام الطبيعيّ الفيزيائيّ وهو يبدّله بأمره لسبب تربويّ كما حدث في الطوفان. يعلن هنا بقوّة المرنّم مجد الله، الذي لا تغلبه أنظمة الطبيعة بل تخضع له إنّه واضعها.

(١٠) أنتَ المرسل العيون في الشعاب، في وسط الجبال تعبرُ المياه

فصل الله بين المياه واليابسة، ونظّم لكلّ منها حدّها. لكن بسبب ما تحتاجه من ماء، جعل الله عيوناً وينابيعَ في الشعاب، تجري بين الجبال في الوديان. هناك رسم لها خطّها بحيث تخدم اليابسة ولا تهدّدها. هذا التناغم بين المنع والسماح تنظيم هو يدلّ على حكمة الله وعظمته وقدرته. هناك مشهد من الهرمونيّة والسلام بين عناصر الطبيعة المتعاكسة، المياه واليبس. ليست العلاقة هي الخطر والخوف بل تحت النظام الإلهيّ كلّ شيء يقود للتكامل والمساعدة[٦٠].

(١١) تسقي كلّ وحوش الغياض، تُقبِل حمير الوحش عند عطشها

يرسل الله الماء بين الجبال ويخرجها ينابيعَ عنايةً حتّى بالوحوش وحمير الوحش، لأنّ عنايته لا تنسى حتّى الوحوش ولو ابتعد عنها الإنسان، فهذه أيضاً تعطش جدّاً وتحتاج لمياه والله يعتني بها. فإذا كان الله يهتمّ ويعتني

---

[٦٠] أنظر: H . J. Kravs, *Die Psalmen*, p. 882

بالوحوش وبزنابق الحقل والطيور... فكم بالحريّ أنْ يهتمّ بنا نحن البشر، فكم بالأحرى أن نطلب أوّلاً ملكوت الله وبرّه وبعدها كلّ شيء يزاد لنا. عناية الله واسعة تشمل الإنسان أوّلاً ولكن كلّ حياة تدبّ على الأرض أيضاً.

(١٢) عليها طيور السماء تسكن، من بين الصخور تغرّد بأصواها

يورد سفر التكوين خلق الطيور[٦١]، ولهذا يرفع نظره المرنّم إلى هذا القسم من العالم الحيّ. وهذه لا تنساها عناية الله الخالق ومحبّته. على ينابيع المياه تحوم طيور السماء وتسكن لتروي عطشها من يد الله الجوّاد.

(١٣) أنتَ الذي يسقي الجبال من علاليه، من ثمرة أعمالك تشبع الأرض

العلالي هي السماء حيث الغيوم التي تمطر على الأرض من خيرات الله وعنايته. وكلّ الأرض تشبع وترتوي، ليس الجبال فقط، كلّ هذه الخيرات تأتي من يد الله المحسِنة. هكذا هناك حيث لا يوجد مياه على الجبال العالية يسكب الله من نعمة الأمطار. عندها تشبع الأرض كلّها وتثمر. عناية الله شاملة لكلّ الخليقة ولكوكبنا الصغير ولكلّ صغير أو كبير فيه، بحيث أنّ كلّ شيء يعطي ثمره. الخصوبة إذن ليست من الأرض، بل من نعمة الله.

(١٤) أنتَ الذي ينبت العشب للبهائم، والخضرة لخدمة البشر

تمطر السماء ويرسل الله "الأوقات والأزمنة" المناسبة، كما نطلب في صلواتنا: "من أجل خصب الأرض بالثمار وأوقات سلاميّة (موافقة)، إلى

---

[٦١] ١، ٢١.

الربّ نطلب". ونتيجة هذه العناية الإلهيّة تنبت الأرض عشباً للبهائم وخضرة لطعام البشر. إنّ العشب نبات تخرجه الأرض بمجرّد تلقّت هبة السماء من الأمطار الموافقة. أمّا "الخضرة لخدمة الإنسان"، فهي نباتات تخرج من الأرض مع خدمة الإنسان، وتحتاج للحراثة والزرع والحصاد... فالمقصود هنا بـــ "لخدمة الإنسان" هو "لعمل الإنسان"، وبعمله هذا يخرج الإنسان من تلك الخضرة خبزه اليوميّ. قد تعني العبارة هنا بكلمة "خضرة" سنابل القمح وبالخبز ما ينتج عنها. لكن بصورة أعمّ المقصود هو أنّ أمطار السماء تنـــزل من عناية الله على الأرض فتنبت للحيوانات عشباً لطعامها، وتساعد خدمة الإنسان الذي يزرع ليحصل على حصاد وفير وثمار يُخرج منها طعامه الضروريّ.

- **ليخرج خبزاً من الأرض**

(١٥) والخمر تفرح قلب الإنسان، ليبتهج الوجه بالزيت، والخبز يشدّد قلب الإنسان

يعيد هنا المرنّم، بشكل تسبحة وشكر أيضاً، كلّ الخيرات الأساسيّة إلى عناية الله التي تنسكب على الأرض من "علاليه" مطراً، فيعمل الإنسان في الأرض، وبفضل هذه الأمطار يستطيع أن يستخرج الخبز والخمر والزيت، هذه هي العناصر الأساسية للطعام اليوميّ. لذلك في صلوات "الخبزات الخمسة" نضع خبزاً وقمحاً وزيتاً ونباركها، لأنّها العناصر الأساسيّة في الطعام، ونرمز بها اختصاراً لكلّ خيرات الأرض التي يعيش الإنسان عليها.

كلّ الخيرات إذن، وبخاصّة الخبز الذي يشكّل القوت الأوّل للإنسان ويشدّد قلبه المتعب من أعمال اليوم، والخمر الذي يفرح به ويبتهج، والزيت الذي يمسح به وجهه، كلّها يهبها الله للإنسان بإعطائه الأمطار والطقس المناسب. يمتلئ المرنّم بروح الشكر ويعبّر عن امتنانه لله الذي جعل لنا الحياة ليس فقط ممكنة بواسطة الخبز الضروريّ بل ومفرحة حين يهبنا ما هو فوق الحاجة الضروريّة مثل الخمر الذي يفرّح قلب الإنسان ويخدم أفراحه وموائده، ويعطي أيضاً فيها من الكماليّات ومن العفّة بالوقت ذاته. بعبارة مماثلة توجه بولس نحو أهل لسترة يخبرهم عن الله: "وهو يفعل خيراً يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعاماً وسروراً"[٦٢]. الإمتلاء والشبع هما شأن يخص البطن وليس القلب، إلا عندما يتناول الإنسان طعامه بشكر أي بشكل ليتورجيّ. لا يعطينا اللهُ القليلَ للشبع بل الكافي ليمتلئ القلب مع الطعام شكراناً والكافي لنحيا بسرور وبهجة أيضاً.

يعطي الله المناخ والأمطار المناسبة فتنتج الأرض عشباً للبهائم، فيزرع الإنسان ثم يحصد ويعمل فيخرج لنفسه طعامه وسروره وبهجته أيضاً؛ يقوت نفسه بالخبز ويُسَرّ بالخمر ويدهن رأسه بالزيت للبهجة.

(١٦) تُروى أشجار الغاب، أرز لبنان الذي غرستَها

بعد النباتات والأعشاب، يجول المرنّم بنظره على الأشجار والغابات. كلّ هذا العالم الملآن بالحيويّة والجمال والخير، كلّه هديّة من الله الذي يمطر على الأرض وينبت هذا العالم الساحر والمفيد. ولعلّ أجمل الأشجار لذهن

[٦٢] أع ١٤، ١٧.

المرنّم، والذي زيّن خشبُه عمارة الهيكلَ، هو أرز لبنان. شجر شامخ قديم الزمان يبرهن أن لا فضل للإنسان عليه، بل الله هو الذي غرسه وأنماه. لهذا يتابع المرنّم "التي غرستها". لهذا يعود الشكر لله والسبح أيضاً، أمّا الإنسان فله أن يتمتّع ويبتهج بهذه الهبات الإلهيّة، وبالتالي أن يشكر ويسبّح.

(١٧) هناك تعشّش العصافير، ومسكن الهيروديّ يتقدّمها

ما أجمل عناية الله الشاملة لكلّ عناصر الخليقة. لقد وضع الله كلّ شيء في الخليقة لخدمة الإنسان، لإشباعه ولمسرّته ولبهجته. لهذا يهتمّ الله بكلّ هذه العناصر كلاً بمفردها. فالأشجار والغابات التي تظهر ليست مفيدة مباشرة للإنسان، هي مفيدة أوّلاً للطيور التي تجد فيها مكاناً لعشّها وتضع فيها أفراخها وتحيا وتتكاثر. الطيور عنصر مفيد للإنسان وخاصّة بما ترميه على وجه الأرض من عنصر جماليّ وروحيّ أيضاً. وهذه الغابات تحمي صغار الطيور مثل العصافير، ولكنها أيضاً تأوي كبارها مثل الهيرودي. البعض يرى في الهيرودي طائر اللقلق. ما يميّز هذا الطائر أوّلاً ضخامته بالمقارنة مع العصافير، ولكن أيضاً أنّه أكثر الطيور التي تظهر رابطاً حنوناً بين الطير وأفراخه. لهذا بينما يطلق المرنّم على مكان العصافير كلمة عشّ الذي يُستخدم لفترة وجيزة تنتهي بنمو صغار الطير، فإنّه يُستخدم لمكان الهيرودي كلمة "مسكن" وهو الأشبه بسكن العائلة الإنسانيّة. عندما يجول المرنّم بناظره يرى تنوّع النباتات وتنوّع الأشجار وتنوّع الطيور... وهذه كلّها دلائل على عظمة الله وحكمته ومحبّته.

(١٨) الجبال العالية للأيّلة، والصخور ملجأ للأرانب

كلّ شيء في الخليقة يخدم باتجاهَين. الأوّل، وجهُه خَدَمَي للإنسان والثاني ذو وجه جماليّ. فهذه الجبال العالية التي لا يسكنها الإنسان تسكنها الأيائل، ومغاورها وصخورها القاسية المهيبة التي لا يقترب منها الإنسان تلجأ إليها الأرنب. كلّ شيء من يد الله فهو إذن صالح وله استخدام مفيد مباشر أو غبر مباشر للإنسان، عندما تستخدمه أيضاً طيور السماء أو حيوانات البرّ، التي هي أيضاً خليقة الله. ينظر المرنّم إلى كلّ شيء بشكر لأنّه جميل وحسن.

(١٩) صنع القمر للأوقات، والشمس عرفت غروبها

يتقدّم هنا المرنّم بناظره متأمّلاً بمسيرة الأوقات وحكمة الله وعظمته. فبعد أن وصف الأمطار والأرض والنباتات والجبال، يلتفت إلى الشمس والقمر، وفائدة كلّ من الليل والنهار[٦٣]. لقد خلق الله بحكمة المكان (الأرض والجبال والبحار) وأيضاً الزمان (يحدّده كلّ من الشمس والقمر)[٦٤]. هذه العناصر الضروريّة والمذهلة كالشمس والقمر، كانت قديماً آلهة، الآن على لسان المرنّم هي خلائق يتمجّد اللهُ الخالقُ بها.

هكذا بتبادل مسيرة الشمس والقمر يتولّد لنا على الأرض النهار والليل بانتظام وبحركة ثابتة. لقد اعتمد الإنسان قديماً في "التقويم" للأيّام القمر أوّلاً

---

[٦٣] أنظر تك ١ ، ١٥.

[٦٤] تك ١، ١٦– ١٨.

ثمّ الشمس. فكانت الشمس تخدم سير الليل والنهار وكان القمر يحدّد مسيرة الشهور والسنين و"الأوقات". "لقد عرفت الشمس غروبها" عبارة تدلّ على حكمة الله العميقة في النظام الذي ركّب عليه مسيرةَ كلّ العناصر حتّى الشمس منها. هذا الكوكب "الإله" أيضاً يخضع لحكمة ونظام الله الخالق. إنّها "عجيبة الخليقة" التي تمّتْ على يد الخالق.

(٢٠) جعل الظلمة فكان ليلٌ، فيه تعبر جميع وحوش الغاب

في النصّ الأصليّ الفعل "جعل" هو في الشخص الثاني، أي "جعلتَ الظلمة". الليل ليس زمناً ضائعاً أو سيّئاً أو ميتاً نتيجة غياب الله وغروب الشمس واختفائها. الليل جزء من عناية الله. صحيح أنّ زمنه هو لراحة الإنسان، وهذه إحدى خدماته، لكنّه بالوقت ذاته هو الزمن لتتحرّك فيه وتخرج لطعامها كلُّ وحوش الغاب. ليس الليل زمناً للخوف أبداً بل هو زمن ضروريّ يقرؤه المرنّم بفرح ويتأمّل به بإعجاب.

(٢١) أشبال تزأر لتخطف، وتلتمس من الله طعامها

إذا كانت عينك صالحة كلّ شيء لك صالح، أمّا إذا كانتْ شريرة فكلّ شيء يغدو شريراً. عين المصلّي عين يملؤها السلام ومفعمة بفرح الثّقة بالله. تلك الأشبال الصغيرة المخيفة للإنسان التي يرهب من صوت زئيرها، ليست عدوّاً مرعباً. على العكس إنّ لها الحقّ بالحياة، هي خليقة الله. وهذا الزئير.

(٢٢) أشرقت الشمس فاجتمعتْ، وفي صيرها ربضتْ

كما تأمّل المرنّم بالليل وبحركة الوحوش فيه في الآيات ٢٠ و٢١ يتأمّل الآن بالنهار وحركة الإنسان في الآيات ٢٢ و٢٣ وهذا التبادل في زمن الأعمال والسعي للعيش هو إحدى جماليّات الخليقة ومظهر من مظاهر حكمة الله.

(٢٣) يخرج الإنسان إلى عمله، وإلى خدمته حتّى المساء

العمل هو رسالة للإنسان على الأرض، ووصيّة إلهيّة لبنائه الروحيّ أوّلاً ولتأمين عيشه[٦٥]. هذا العمل يمتدّ في فترة النهار حتّى الغروب. وبحكم الأعمال الزراعيّة آنذاك، في زمن وفي محيط داؤود النبيّ، كان النهار هو زمن الأعمال والليل هو زمن الاستراحة. "مَن لا يعمل لا يأكل" و"بعرق جبينك تكسب خبزك". كلّها آيات تنتظر النهار لتكسب قدسيّتها وتحقيقها. كلمة "خدمة" هنا تدلّ على بُعد روحيّ أوسع من كلمة "عمل".

(٢٤) ما أعظم أعمالك يا ربّ، كلّها بحكمة صنعتَ، قد امتلأتِ الأرض من خليقتك

يقطع المرنّم جولته حول عالم الخليقة، إذْ غَمَر قلبَه التسبيحُ، ويرفع عينيه إلى الله، لم يعد يستطيع أن يتوقّف عند الخلائق، التي قاده التأمّل فيها إلى طلب وجه الله الخالق. تدخل هذه الذكصولوجيا كفاصل بين سلسلة تأمّلات

---

[٦٥] تك ٣، ١٧-١٩.

للمرنّم في عناصر الخليقة، بل هي الصلاة وحركة القلب التي تصدر بحرارة بعد هذه الجولة على الخليقة.

هناك سببان يجعلان داؤود يصرخ "ما أعظم أعمالك يا ربّ" كما صرخ في بداية المزمور "أيّها الربّ إلهي لقد عظمتَ جدّاً". السبب الأوّل هو: "كلّها"، أي عدد وتنوّع خلائق الله. وهذا ما لحظناه في تأمّله بكلّ الكائنات فهناك طيور آهلة وهناك طيور بريّة، منها الصغير ومنها الكبير، وكلّها تقدّم خدماتها المباشرة أو غير المباشرة لحياة الخليقة وخدمة الإنسان، وكلّها برعاية الله الخالق. هذا التنوّع مدلول عظمة الله ومحبّته. لكن النظام الذي يجعل كلّ هذه الخلائق تكون جملة واحدة من الحياة، وأسرار تكوينها ومسيرها وترابطها... كلّها أمور تُعلن للملأ حكمةَ الله السامية. نعم، "كلّها بحكمة صنعتَها". فأعمال الله عديدة ولكنّها مهمّة وثمينة. أعمال الله بقدر ما تدلّ على قدرته وعظمته تُشهر محبّته وحكمته. وهذه الحكمة الإلهيّة من أهمّ الصفات التي سبّحها الإنسان. يقول سفر الأمثال[٦٦]: "الله بالحكمة ثبَّتَ الأرض، وبالفهم هيّأ السموات". أَلم يكن الله للفلاسفة "فنّاناً" رائعاً؟ يزيد الكتاب على حكمة الله أنّه صنعَ الخليقة. ليس الله مجرّد فنّان يبدّل شكل خليقةٍ عمياء حين يضفي عليها من حكمته فتصير مادّة ساحرة! الله هو الخالق، كان قبل الخليقة. الله خالق ليس بمعنى خلاّق وفنّان بل بمعنى "معطي الحياة". لهذا يقول المرنّم: "ما أعظم أعمالك يا ربّ كلّها: "بحكمة" "صنعتَ". كلّ الأمور بحكمة صُنِعَتْ، لذلك لكلّ الأمور استخدام حسن ما! لا توجد نظرة تفاؤليّة وإيجابيّة ومنفتحة على المادّة والكون أكثر من هذه

---

[٦٦] ٣، ١٩.

النظرة. لا توجد نظرة تضارب بين المادّة والروح على الإطلاق، ما دامت الحكمة قد كوّنت كلّ المواد، إلاّ إذا أفسد استخدامُ الإنسان تلك الحكمة أو لم يفهمها.

قد امتلأت الأرض من خليقتك: هذه كلمات تعبّر عن عظم إحسان الله وجوده، وعن إعجاب المصلّي بذلك وشكره عليه. والجميل والعميق هنا هو كلمة "خليقتكَ": أي أن يعِيد المرنّم كلّ الخليقة إلى الله، كما نرنّم قبالة الاستحالة في القدّاس الإلهيّ – سرّ الشكر: "التي لك مما لم، نقدّمها لكَ على كلِّ شيء ومن جهةِ كلِّ شيء". نعم هذه الخليقة الساحرة والعظيمة لا تسيطر على قلب المرنّم بل ترسله إلى الله، إنّها "بوق" يعلن عن حضور الملك في مملكته. يستريح المرنّم هنا قليلاً من الالتفات إلى السماء والأرض وما فيها من أعمال كثيرة وعظيمة تمجّد الله، فيرفع هذه التعظيمة، ثم يتابع بعدها.

(٢٥) هذا البحر الكبير الواسع، هناك دابّات لا عدد لها، حيوانات صغار مع كبار

مرّ المرنّم بناظره على البحر في الآية (٦) ولكن هناك، كان يتأمّل علاقتها مع البرّ، والنظام الذي رتّبه الله بين المياه واليابسة. أمّا هنا فيتأمّل بالبحر كعالم فيه خلائق عديدة ومهيبة خلقها الله في اليوم الخامس بحسب سفر التكوين: "فخلق الله التنانين العظام وكلّ ذوات الأنفس الحيّة الدبّابة التي فاضت المياه كأجناسها... وباركها الله قائلاً أثمري وأكثري واملأي المياه في البحار... وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً خامساً"[٦٧].

---

[٦٧] تك ١، ٢١-٢٣.

فهذا البحر الواسع الكبير هو عالم آخر بحدّ ذاته قد نجهل عنه أكثر مما نعرف عن اليابسة. لا بل هذا العالم الثاني عالم البحار يحوي حيوانات صغاراً مع كبار لا عدد لها ولأنواعها، وتدبّ في أعماقها ما لا نعرفه من حيوانات وأسماك. هذا البحر الواسع يعجّ بالحياة والكائنات، ولا تقلّ عناية الله التي هناك ولا نراها عن هذه التي على اليابسة ونلاحظ بعضاً منها.

(٢٦) هناك تجري السفن، هذا التنين الذي خلقتَه يلعب فيه

بعد أن تأمّل المرنّم بإعجاب في أعماق البحار والكائنات التي تدبّ فيها، هوذا ينظر إلى سطح المياه الذي تعبر عليه السفن في اتّجاهات عديدة تصل الناس بعضهم البعض بدل المسافات البريّة الصعبة والطويلة وربّما المستحيلة، فيتبادلون التعارف والتعاون والأعمال. ولكن هذا البحر ليس للخدمات وحسب بل ما أجمله يشبع عين الإنسان فرحاً وراحة وسلاماً وإعجاباً. هوذا مشهد التنّين – وهو عبدٌ لله وخليقته – يلعب على سطح البحار. هناك تفاسير عديدة حول "التنّين" المذكور هنا. هل هي الحيتان الكبيرة أم رمز للشيطان أم كائنات بحريّة عجيبة...! بعض المخطوطات تورد اسم "لوياثان" المذكور في سفر أيوب[٦٨]: "هوذا بهيموت الذي صنعتُه معكَ..."، وهو حيوان موجود في نيل مصر المعروف بفرس البحر[٦٩]. لا شكّ أنّه مهما تعدّدت التفسيرات، فالواضح أنّ المرنّم يقلب الصورة عن البحار. فبعد أن كانت عالم المجهول والخوف، حيث يمضي الناس ولا يعودون، ومَن

---

[٦٨] ٣، ٨.

[٦٩] راجع حاشية الكتاب المقدس، سفر أيوب صـ٧٠٣، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

يموت هناك تأكله التنانين ولا يُعرف له أثر من بعد! صار البحر مكاناً تبحر فيه السفن ويستخدمه البشر، وتنانينه الجبّارة المخيفة ما هي إلاّ خليقة الله وسوف تلعب على سطحه ليتمتّع الإنسان بمشاهدتها. صورة مشابهة نستخدمها في صلواتنا يوم الظهور الإلهيّ "رأتْكَ المياه فجزعتْ، الأردن رجع إلى الوراء". لهذا في أيقونة الظهور، في المياه وتحت أقدام يسوع، هناك تنّينان يهربان كلّ واحدٍ من جهة، الأوّل عليه امرأة (تمثّل البحر وهو اسم أنثى في اليونانيّة عكس اللّغات العبريّة والعربيّة)، والآخر عليه رجل (يمثّل نهر الأردن)؛ والمعنى العميق هو انكسار قوى الشرّ الكامنة في البحار أمام السلطة التي أعطاها الله للإنسان عندما خلقه وبعدها في اليوم السادس: "لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلّطون على سمك البحر...". وهذا ما يعنيه سفر المزامير: "أنتَ شققتَ البحر بقوّتك، كسرتَ رؤوس التنانين على المياه. أنتَ رضضتَ رؤوس لوياثان، جعلتَه طعاماً للشعب لأهل البريّة"[٧٠].

لا شكّ أنّ لوياثان هذا هو في سفر أيوب رمز للمجهول والعبث[٧١]، الذي عبّر عنه سفر التكوين: "في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربةً وعلى وجه الغمر ظلمةٌ..."[٧٢]. جاء هذا التنّين من الميثولوجيا الكنعانيّة، عن حرب بين إله الخصب "بعل" و"لوثان" البحر[٧٣]. لكن هذا الاسم في الكتاب المقدّس لا يُستخدَم ميثولوجيّاً بل يرمز إلى انكسار التنانين الجبّارة أمام سلطة الإنسان التي وهبها الله إيّاها؛ فهو مجرّد حيوان بحريّ محدّد

---

[٧٠] ٧٤، ١٣- ١٤

[٧١] (أيوب ٣، ٨)

[٧٢] (تك١، ١-٢).

[٧٣] أنظر: O. Kaiser, *Die Mysthische Bedeutung des Meeres in Ägypten, Ugarit und Israel*, BZAW 78, 1985, p. 69

وليس إلهاً[٧٤]. هؤلاء الجبابرة، في أخطر وأضعف مكان للإنسان أي البحر، باتوا ألعوبةً يتسلّى بها الإنسان حين يراها ترقص على سطح المياه[٧٥]، ما أعظم أعمالك يا ربّ كلّها فعلاً بحكمة صنعتَها!

(٢٧) كلّها إيّاك تترجّى، لتعطيها طعامها في حينه، وإذا أنتَ أعطيتَها جمعتْ

أبوّة الله لا تظهر من عمل الخلق الرائع وحسب، هذا يُظهر ربّما عظمته. لكن أبوّته تظهر من كلمات المرنّم: "أنتَ أعطيتَها هي جمعتْ". عناية الله شأن يظهر أبوّته في خليقته كما يُظهر الخلق عظمته فيها. يلخّص هنا المرنّم المشهد السابق في الآيات (١٩- ٢٦)، فالله يجلب الحياة، لكن الحياة لا تستمرّ دون تغذية، الله هو الذي يغذّي شعبه وخليقته. لا تأتي الخليقة من الله فقط، بل وتستمرّ بفضل عنايته؛ إنّه يهتمّ بكلّ شيء فيها ويؤمّن له طعامه. محبّة الله لا تخلق العالم لتتركه بل لتحييه على الدوام.

"كلّها إيّاك تترجّى"، حياة كلّ الخلائق متعلّقة بمحبّة الله. "أعيُن الكلّ إيّاك تترجّى وأنتَ تعطيهم طعامهم في حينه"[٧٦]. "إليكَ رفعتُ عينَيَّ يا ساكن السماء كما هي عيون العبيد إلى أيدي مواليهم...".

---

[٧٤] أنظر: E. Jacob, *Ras shamra et l’Ancien Testament*, CAB 12, Neuchâtel 1960, p. 96

[٧٥] أيوب ٤٠، ٢٩.

[٧٦] مز ١٤٤، ١٥.

(٢٨) تفتح يدك فيمتلئ الكلُّ خيراً، تصرف وجهك فيضطربون

يلتفت في الآية السابقة المرنّم إلى الخلائق فيراها تتطلّع إلى الله تنتظر منه طعامها- حياتها. لكنّه يُعيد نظره هنا إلى الله فيكتشف ما هو أهمّ، أنّ الله كريم جوّاد يفتح يده فيمتلئ الكلُّ خيراً. نعم، الخلائق كائنات محتاجة تنظر إلى مَن يعولها. ولكن الأهمّ أنّ الله أبٌ مدبّر يعطي بسخاء. وبلغ جود الله أنّه فتح- بسط يدَيه على الصليب وأعطى بذلك خبرات لا ثمن لها.

كما أنّ فتح اليد دليل المحبّة الكريمة، كذلك صرف الوجه دليل المحبّة المتألّمة. طبعاً هذه صور من الحياة البشريّة، التي يريد المرنّم أن يعبّر بها عن المحبّة الإلهيّة. إذا صرَفَ اللهُ وجهَه "الكلّ" يضطربون، أي يعدمون الحياة بدرجة ما. وفي الحالتَين: صورة اليد المفتوحة فيحيا الجميع، وصرف الوجه فيضطربون، تريدان التأكيد أنّ الله هو مصدر الحياة وقوّتها.

(٢٩) تنـــزع أرواحهم فيفنون، وإلى ترابهم يرجعون

يفتح الربُّ يدَه فيمتلئ الكلّ خيراتٍ ويعيشون. لكن الله سيّد الروح أيضاً وليس المادّة أو الجسد فقط، لذلك له وحده السلطان أن يسحب الروح التي وهبها، فيفنون وإلى ترابهم يرجعون. إنّ الله هو واهب الطعام وواهب الروح وسيّدها كلّها على السواسيّة. يعطي فنحيا يحجب فنموت.

للروح في لغة الكتاب معانٍ عدّة، لكنّها هنا تعني روح الحياة وعنصرها[٧٧]، وهو ما يسمّى مرّات عديدة الـــ "نفس"[٧٨]. وهذه المعاني

---

[٧٧] راجع تك٦، ١٧ و٧، ١٥ وأيوب ٢٧، ٣.

[٧٨] تك ١، ٢٠ وأمثال ١٢، ١٠.

محصورة في الحياة البيولوجيّة ولا تقصد معنى الروح التي نالها الإنسان في الخلق بعد أن جبله الله وصار نفساً حيّة، حيث هذه الأخيرة تعني بالروح الحياةَ الروحيّة وليس الحياة البيولوجيّة فقط.

لذلك يستخدم المرنّمُ فعلَ "تنـــزع" وهو يعني: تعيد، تسحب (ανταναλείς)، أي تسحب العطيّة. الروح هي هبة الله كما يصرّح عن ذلك كلّ المزمور. ولله السلطان أن يحجب الهبة. سلطان الله ليس كسلطان البشر، هؤلاء لهم سلطة على الجسد فلا نخافهم، لكنّنا "نرهب من سلطان على الروح أيضاً". إنّ عظمة الله هذه لا تقارَن بما هو معهود ومعروف في عالم البشر.

(٣٠) ترسل روحك فيخلقون، وتجدّد وجه الأرض

يرى العديدون في هذه الكلمات صورةً عن القيامة أو العنصرة، عندها: "روحك" تعني الروح القدس. رغم أنّ هذا المعنى روحيّ سامٍ يبقى المعنى الأقرب هو إعجاب المرنّم بعناية الله، عندما يتأمّل في توالي الفصول والمواسم واستمراريّة الكائنات، التي تولد تنمو ثم تعود وتموت. لكن الموت ليس النهاية، فالله ينفخ روحه فتخلق الكائنات وتستمرّ الحياة على وجه الأرض. تبدو الطبيعة فعلاً وكأنّها في دورة مستمرّة، تموت وتحيا، تفسد وتتجدّد. والله هو الذي يُحييها حين يهب الحياة فيها أو عندما لا يهبها تعود تذبل وتموت. إنّ المرنّم يرى في توالي دورة الحياة بين الولادة والموت قانوناً إلهيّاً طبيعيّاً يجعل استمراريّة الحياة، والتي هي إرادة الله، ممكنة.

(٣١) ليكن مجد الرب إلى الدهر، يفرح الربّ بأعماله

للمرّة الثالثة تخرج من قلب داؤود صرخة التمجيد: بعد الآية ١ و٢٤. يمجّد المرنّمُ اللهَ في افتتاحيّة المزمور، ويمجّده في وسطه، ثمّ هنا في بدء الخاتمة يكرّر التمجيد. هذا الكون ينـــزع التسبيح من قلب المرنّم. "ليكنْ مجد الربّ إلى الدهر": لا تعني رجاءً أو دعاءً، بل تذكيراً بالحقيقة الأبديّة، أي: ليبقَ مجد الربّ الذي أراه إلى الدهر. إنّها عبارة تمجيد "لمجد الله" الأزليّ. لقد طاف بناظره المرنّم على أعمال الأيّام الستّة في الخلق، وهوذا يصل الآن في هذه التسبحة من مجد الله في خلقه إلى مجد الله في ذاته، أي إلى استراحته في اليوم السابع[٧٩]. يفرح الربّ بأعماله لأنّه "رأى كلّ شيء حسناً"[٨٠] و"رأى اللهُ كلَّ شيء حسناً جدّاً"[٨١] فاستراح وفرح بأعماله. يفرح الربّ حين يرى مجده، أي حين يرى خليقته ملتحِفةً بمجده، أي ممجَّدةً، أي حسنةً جدّاً.

(٣٢) الذي ينظر إلى الأرض فيجعلها ترتعد، ويمسّ الجبال فتدخّن

لكن، لننتبه: "بروسخومن"! لقد خلق اللهُ كلَّ شيء حسناً جدّاً، ويفرح بهذه الخليقة الممجَّدة. إلاّ أنّ الخبرة دلّتْ أنّ الإنسان يعبث بالمحبّة الإلهيّة، تجاه ذاته، ويعبث بالخليقة أيضاً، فيُغضبُ اللهُ! لذلك يستخدم المرنّم صورتَين بشريّتَين ليجعلنا نرهب العبث في السلام والهرمونيّة والحياة والنظام المزروع في الطبيعة وبكلّ تلك الهبات الإلهيّة.

---

[٧٩] تك ٢، ٢-٥.

[٨٠] تك ١، ٤، ٨، ١٠، ١٣، ١٨، ٢١، ٢٥.

[٨١] تك ١، ٣٠.

الله قويّ وجبّار مع أنّه بمجرّد طرفه وهّابٌ وجوّاد، إذا ما عكّر خليقتَه أمرٌ سيلتفت إليه ويجازيه. إنه إذا ألقى بنظره على الأرض ترتعدُ، وإن مسَّ الجبال تدخِّن! فكم بالحريّ لو تدخّل! من مجرّد النظرة أو أبسط لمسة ترتعد الأرض وتدخّن الجبال. يتصوّر البعض أنّ المرنّم يأخذ هذه الصور من الزلازل والبراكين. أو أنّ الدخان يذكّرنا بظهور الله لموسى على جبل سيناء[٨٢].

(٣٣) أسبّح الربّ في حياتي، وأرتّل لإلهي ما دمتُ موجوداً

الله مستحقّ كلّ تسبيح، سأجعل عملي مدى حياتي تسبحته: "وعلى الدوام تسبحته في فمي". "هل يحدّث أحدٌ في القبر برحمتك؟ وهل تعرف في الظلمة عجائبكَ؟" سوف يعطي المرنّم لحياته قيمتَها الحقيقيّة وشرفها إذ يجعلها زمناً لتسبيح هذا الخالق بعظمته وحكمته ورحمته.

(٣٤) يلذّ له تأمّلي، وأنا أفرح بالربّ

نعم سيقضي المرنّم حياته تسبيحاً، لأنّ ذلك لذيذ لدى الله. ليس للمصلّي شهوة في قلبه إلاّ أن يرضي القلب الإلهيّ ويشعر برضاه. ولكن أيضاً، هذا التسبيح سيجعل المرنّم يشعر بالحضرة الإلهيّة وهذه الحضرة ستُفرح قلبه. تسبحة المرنّم تلذّ لله، والمرنّم سوف يلّذُ بها أيضاً بذكر الله. لا أجمل لدى المرنّم من أن يفرح الربّ بصلاته ويقبلها فيفرح هو بذلك.

---

[٨٢] انظر مزمور ١٤٣، ٥.

(٣٥) لتبدِ الخطأة من الأرض والأثمة، حتّى لا يوجدوا فيها، باركي يا نفسي الربَّ

جال قلبُ المرنّم على كلّ عناصر الخليقة هائماً بعظمة الله وحكمته، فأُعجب بالنظام وبقدرة الله وبخضوع كلّ شيء لأمره من السماء إلى المياه... لكنّه ينتفض فجأةً حين يتصادف مع المتمرّد الوحيد على الله، بين كلّ عناصر هذا الجمال، الذي يعصى أمر الله ويكسر له قوّته، إنّه الإنسان الخاطئ، آه... يتألّم قلب المرنّم، يا لَيْتَ الخطأة يغيبون عن وجه الأرض ولا يعود إذن هناك شيء يسيء إلى هذا التكامل وهذه الهرمونيّة وهذا الجمال!

لا شكّ أنّ قلب المصلّي لا يلغي الخطأة والأثمة لكنّه يتنهّد على الخطيئة والأثم. لأنّ هذا الأخير يجلب الاضطراب لهذا العالم المنتظم والرائع. سيتمّ ذلك يخبرنا الكتاب، كما كان في البدء في الفردوس. لكن سننظر إلى مجيء يوم الربّ المجيد.

القلب المتخشّع والسكران بجمال ونظام هذا الكون وعظمة الله وعنايته "يفرح بالربّ"، وبالوقت ذاته لكن يحزن على "الخطيئة" التي وحدها تعكّر هذا الفرح! "ليأتِ ملكوتك... ونجّنا من الشرّير": هذه صلاتنا اليوميّة.

إنّه مزمور تسبيح وشكران، لكنّه يختم بمواجهة واقع الخطيئة في عالمنا فيدعونا للتمرّد لا على الله الخالق الممجَّد في خليقته بل على الخطيئة التي تسيء إلى هذا المجد الإلهيّ– الإنسانيّ. ما أعظم أعمالك كلّها يا ربّ بحكمة صنعتَها، باركي يا نفسي الربّ؛ آمين.

الــفــهــرس

- **الإهداء** **٥**
- **المقدّمة** للمطران يوحنّا منصور **٩**

تــأمّــلات فــي المــزامــيــر

في المزمور الـــ ٤	■ **سرّ الحرب الروحيّة**	**١١**
	■ **ديناميكيّة الحياة**	**١٩**
في المزمور الـــ ٦	■ **دموع التوبة**	**٢٥**
في المزمور الـــ ٥٠	■ **صلاة التوبة**	**٣٥**
في المزمور الـــ ٦٢	■ **صلاة في الضيق**	**٥٥**
في المزمور الـــ ٨٣	■ **مصاعد القلب**	**٧١**
في المزمور الـــ ٩٠	■ **الاتّكال على الله**	**٧٩**
في المزمور الـــ ١٠٣	■ **إلهي الخالق**	**٨٥**
في المزمور الـــ ١٢٩	■ **إله الغفران**	**١١٥**

للــمــؤلِّــف

- **برج وجسد،** عظات في رسائل الآحاد والأعياد، منشورات دير البشارة (حلب) – قيد الإصدار.
- **مصاعد القلب،** منشورات دير البشارة (حلب)، ٢٠٠٦، (تأمّلات في المزامير).
- **سِفْرُ الكَلِمَة (الجزء الأول)،** التريودي والبندكستاري، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس (حلب)، ٢٠٠٦، توزيع تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع (عظات في أناجيل الآحاد والأعياد).
- **سِفْرُ الكَلِمَة (الجزء الثاني)،** الدورة الطقسيّة الثابتة والأعياد الشهريّة، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس (حلب)، ٢٠٠٦، توزيع تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع (عظات في أناجيل الآحاد والأعياد).
- **السائحان بين السماء والأرض،** منشورات مطرانية بصرى، حوران، جبل العرب والجولان للروم الأرثوذكس، ٢٠٠٥، (كلمات رعوية).

- **القديس أرسانيوس الكبادوكي**، للراهب بايسيوس الآثوسي، منشورات دير سيدة البلمند، ١٩٩٧ (تعريب عن اليونانية).
- **تفسير المزمورين ٥٠ و٦٢**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٧٤، ١٩٩٦ (طبعة ثانية منقحة).
- **الستارتس إيلاريون**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٦٧، ١٩٩٥ (تعريب عن اليونانية).
- **الستارتس شمشون**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٦٥، ١٩٩٥ (تعريب عن اليونانية).
- **قوّة اسم يسوع**، للأسقف كاليستوس وير، منشورات دير سيدة – بلمانا، ١٩٩٤ (تعريب عن الانكليزية).
- **رسالة محبة – توضيحات لبعض أسس الإيمان المسيحي**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٥٨، ١٩٩٤.
- **منتخبات روحيّة (٣)**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٥٧، ١٩٩٤.
- **القديس كاسيانوس الروميّ**، منشورات مطرانية الروم الأرثوذكس باللاذقية، رقم ٥٤، ١٩٩٣ (تعريب عن اليونانية).